المدخل إلى علم التاريخ

د. محمد بن صامل السلمي
الأستاذ المشارك بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية
كلية الشريعة - جامعة أم القرى

إحياء التراث

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

مكتبة إحياء التراث الإسلامي
مكتبة منهال العلم - مكة المكرمة الملقية بجوار مستوصف الصاعد
المركز الرئيسي : مكة المكرمة - الزاهر - عمائر المنصور ت : ٥٤٤٥٩٨٤
الفرع الثاني : مكة المكرمة - الزاهر - ملقية - بجوار مستوصف الصاعد
ت : ٥٤٢٤٤٨٧ فاكس : ٥٤٣٦٦٢٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وخاتم المرسلين، إمامنا وقدوتنا وسيدنا محمد بن عبدالله وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعد.

فإن علم التاريخ من العلوم الواسعة، وهو علم متجدد مع الزمن، ومتنوع في الفروع، فليس التاريخ مقتصرًا على الدول، بل يشمل التراجم للعلماء والأعيان والأمراء والحكام والشعراء، كما يشمل الأنساب والأسر والقبائل، وكذا العمران والآثار والنظم وتواريخ العلوم، ونشأة كل علم وتطوره.

والمؤرخ بحاجة إلى تنوع المعرفة والمصادر حتى يكتسب علم التاريخ ويصير من أهله، فهو على علاقة وثيقة بعلم الأنساب، وعلم الجغرافيا، وعلم الاجتماع، وعلم الخطوط، وعلم العقائد والأديان والمذاهب والاتجاهات الفكرية.

وهذا المدخل إلى علم التاريخ يكشف لك شيئًا من أهمية علم التاريخ وأهداف دراسته، وصلة علم التاريخ بالعلوم الأخرى، والمصادر الأساسية للتاريخ، ويضع بين يديك تصورًا موجزًا للتقسيمات الزمنية للعصور، وتتابع الدول في العالم الإسلامي منذ عصر الرسالة حتى العصر الحاضر.

ودارس التاريخ بحاجة إلى منهجية في دراسته ومعرفة لضوابط علم التاريخ عند المسلمين، وهذا ما تمت دراسته في الفصل الثالث مع

الإشارة إلى نماذج من مناهج المؤرخين قديمًا وحديثاً وأثر الاتجاهات الفكرية على ذلك، وعوامل قيام الدول وسقوطها ونماذج من حالات السقوط، وفي الفصل الرابع دراسة تحليلية للحضارة الغربية المعاصرة، ثم ختمت البحث بفصل ختامي بعنوان «المستقبل للإسلام».

هذا وقد ختمت كل فصل بعدد من الأسئلة المعينة على المذاكرة والاستيعاب والفهم، وكاشفة عن محتويات الفصل.

وأسأل الله العظيم أن يجعله عملاً خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به من شاء من عباده.

المؤلف

مكة المكرمة

١٤٢٣/١/١٧هـ

الفصل الأول

مفهوم علم التاريخ وأهداف دراسته

معنى التاريخ وتعريفه

حتىٰ ندرك مفهوم علم التاريخ ودلالته فإنَّنا نحتاج إلىٰ معرفة معنىٰ لفظة: «التاريخ» في اللغة وفي اصطلاح المؤرخين المسلمين.

التعريف اللغوي:

التاريخ في اللغة: هو الإعلام بالوقت، قال الجوهري[(١)]: التأريخ تعريف الوقت، والتوريخ مثله، يقال: أرَّخ الكتاب ليوم كذا: وقَّته، ويقال: أرَّخت، وورختُ.

وقد فرَّق الأصمعي بين اللغتين فقال: بنوتميم يقولون: ورَّخت الكتاب توريخًا، وقيس تقول: أرَّخته تأريخًا[(٢)].

التعريف الاصطلاحي:

أما التعريف الاصطلاحي فقد اختلفت عبارات العلماء من المؤرخين المسلمين في وضع تعريف محدَّد لعلم التاريخ، ولعلَّ مردّ ذٰلك إلىٰ سعة الموضوعات التي تدخل في مفهوم علم التاريخ، وإلىٰ اكتفاء بعضهم بذكر فوائده وأغراضه[(٣)].

وسنعرض فيما يلي بعض التعريفات:

قال ابن خلدون: «فنُّ التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال... إذ هو في ظاهره لا يزيد علىٰ أخبار عن الدول والأيام، والسوابق من القرون الأول تنمو فيها الأقوال، وتؤدي لنا شأن الخليقة

---

(١) راجع الصحاح (١/٤١٨)، ولسان العرب، مادة: «أرَخ».

(٢) السخاوي: الاعلان بالتوبيخ ص(٦).

(٣) يحسن الرجوع إلىٰ مقدمة كتابي: تاريخ خليفة بن خياط، وتاريخ الطبري.

كيف تقلَّبت بها الأحوال، واتَّسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتىٰ نادىٰ بهم الارتحال. . . وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات[(١)] ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق»[(٢)].

وقال المقريزي: التاريخ: الإخبار عمَّا حدث في العالم في الزمان الماضي[(٣)].

وقال السخاوي: التاريخ: التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة، ووفاة وصحة ورحلة وحج، وحفظ وضبط وتوثيق وتخريج» إلىٰ أن قال: والحاصل أنَّه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، بل عمَّا كان في العالم، وأما موضوعه: فالإنسان والزمان[(٤)].

وقال سيد قطب: «التاريخ ليس هو الحوادث إنَّما هو تفسير هٰذه الحوادث، واهتداء إلىٰ الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان»[(٥)].

لقد ركَّز هٰذا التعريف علىٰ اللب والغاية من دراسة التاريخ وهو تفسير الحوادث وبيان السنن التي تسيرها، وإلاَّ فإنَّ الوقائع والأخبار مهمة بلا شك، وهي تمثل لبنات البناء التاريخي التي لا يقوم هٰذا العلم

---

(١) أي بيان أسباب الحوادث والوقائع الكائنة في الزن الماضي.

(٢) المقدمة ص(٢).

(٣) علم التاريخ عندالمسلمين ص(٢٦).

(٤) الاعلان بالتوبيخ ص(٧).

(٥) في التاريخ فكرة ومنهاج ص(٣٧).

بدونها، وهو قريب من تعريف ابن خلدون إلاَّ أنَّه أوضح في إدراك وظيفة علم التاريخ وأهميته في تربية الأمة.

ومن هٰذه التعريفات نخلص إلىٰ أنَّ علم التاريخ: علم نظري إنساني يبحث فيه عن حوادث الزمان من حيث التعيين والتوقيت، ومن حيث التفسير والتعليل.

موضوع علم التاريخ:

اتَّضح مما سبق أنَّ موضوع علم التاريخ هو البحث في تاريخ الإنسان عبر الزمان الماضي بعصوره المختلفة وأحواله المتجددة والمتعددة في جوانبها العلمية والسياسية والاجتماعية والحضارية وضبط زمان وقوعها وكيفيته وهو يشمل جانبين هما:

١ـ نقل الحدث وروايته

٢ـ تفسيره وتعليله:

غاية علم التاريخ وأهدافه وفوائده:

طالما أنَّ علم التاريخ بهٰذه المثابة من الأهمية فلا بد أن نسأل أنفسنا هٰذا السؤال فنقول:

* ما هي أهداف دراسة التاريخ وفوائده؟

* هل ندرس التاريخ لمجرَّد المعرفة التاريخية؟ أم لمجرَّد التسلية؟ أم لحفظ القصص والحكايات؟ أم لإشباع غريزة حب الاستطلاع؟

* وهل هٰذه أهداف تكفي لإنفاق الوقت والعمر لدراسة التاريخ؟

أم أنَّ أهدافًا أخرىٰ أسمىٰ وأعلىٰ من هٰذه الأهداف والحاجات البسيطة والقريبة!! هي المقصودة.

إنَّ علم التاريخ أجل من أن يُنظر له هٰذه النَّظْرة وإلاَّ لما ذكر الله

سبحانه وتعالىٰ تاريخ السابقين وقصص النبيين في القرآن الكريم الذي هو كتاب هداية وإرشاد وشريعة وأحكام.

فتعال أخي طالب العلم نتعرَّف سويًا علىٰ بعض أهداف دراسة التاريخ.

إنَّ أهداف دراسة التاريخ وفوائده جمة وغزيرة وسنذكر لك أهمها:

١ـ معرفة السنن الربانية:

هٰذه أعظم ثمرة تستفيدها من دراستك للتاريخ فكن متذكرًا وملاحظًا لها في كل قراءاتك التاريخية، ولكن هل تعرف ما هي السنة الربانية؟

إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ سننًا في خلقه أرشدنا إليها وطلب منَّا التعرف عليها والتعامل معها، اقرأ هٰذه الآيات: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر: ٤٣].

والمطلوب منك التعرف علىٰ هٰذه السنن، وبالنظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ نجد أنَّ السنن ثلاثة أنواع:

أـ سنن خارقة للعادة ومألوف الناس: مثل: الآيات والبراهين التي يجريها الله علىٰ أيدي الأنبياء عليهم السلام، والكرامات الصحيحة لأولياء الله من عباده المؤمنين.

ب ـ سنن جارية طبيعيةكسنة الله في تعاقب اللَّيل والنَّهار والشمس والقمر فهي تجري وفق ناموس محدَّد قدَّره الله لها.

ج ـ سنن جارية شرعية، متعلقة بأمر الله ونهيه ووعده ووعيده: مثل: نصره لأوليائه، وإهانته لأعدائه، وابتلائه لبعض عباده المؤمنين.

وهـٰذا النوع الثالث يُدرك ويُرىٰ متحققًا في الواقع من خلال النَّظر في التاريخ وملاحظة مصائر الأمم، وقيام الحضارات وسقوطها وأسباب ذٰلك، فالتاريخ بما يحوي من الحوادث المتشابهة والمواقف المتماثلة والمصائر المتَّحدة إذا اتَّحدت البواعث والمواقف يساعد في الكشف عن هـٰذه السنن الشرعية، لأنَّ السنة الربانية قد تستغرق وقتًا طويلاً حتىٰ تُرىٰ متَّحققة في الواقع، وعُمر الفرد محدود فلا يمكنه رؤية السُنة كاملة، إنَّما قد يرىٰ بداية السُّنة الربانية ثم لا تتحقق نهايتها في حياته مما قد يدفعه إلىٰ التكذيب بها وهنا يكون دور التاريخ في اعطائنا وقائع تاريخية تحقَّقت فيها سنة الله، ومن ثمَّ يُعلَم أنَّ الحاضر الذي تعيشه إذا كان فيه ما يتصوَّر أنَّه مخالف للسنة الربانية الشرعية غير مستثنىٰ من السنة الربانية، بل هو جزء منها ولكن لتحقق سنة الله شروط وأجل محدَّد.

يقول سيد قطب: «وإنَّه لمما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي أو الملحد الكافر مُمَكَّنًا له في الأرض غير مأخوذ من الله، ولكن النَّاس إنَّما يستعجلون، إنَّهم يرون أوَّل الطريق أو وسطه ولا يرون نهاية الطريق، لأنَّ السنة تستغرق وقتًا طويلاً لكنَّها تُلاحظ من خلال التاريخ»(١).

(١) في ظلال القرآن(٢/ ١٠٣٨).

قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٦].

وقال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٥].

وفائدة معرفة السنن الشرعية هي التجاوب معها أمرًا ونهيًا، عملاً وامتناعًا، فإذا كانت السنة الربانية تطلب منّا عملاً وتأمرنا بأمر مثل سنة التمكين، وسنة تحقق النّصر، وسنة رفع البلاء والمكروه، فلنقم بذٰلك الأمر حتىٰ نستجلب خير السُّنَّة الإلٰهية.

وإذا كانت تنهانا عن شيء وتطلب منّا الإقلاع عنه حتىٰ لا تحيق بنا السنة الربانية فلنتجاوب مع ذٰلك، ونتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلىٰ الدمار والهلاك وذهاب الريح والسلطان، والتي قصَّ الله علينا خبرها وبيَّن سبب هلاكها وأخذها في كتابه الكريم.

ومعرفة السنن تفيد في معرفة أسباب الأحداث وتفسيرها، فنكسب بتلك المعرفة بصيرة في القدرة علىٰ التحليل، وطمأنينة في

النَّفس والضمير، وقدرة علىٰ اتِّخاذ الموقف السليم لمواجهة الأحداث، بخلاف من يجهل مصدر الأحداث وأسبابها الحقيقية، فلا يكون لديه إلاَّ الحيرة والخوف والقلق.

وبعد أن عرفت أهمية ادراك السنن الربانية وأنواعها وفائدتها فإنَّنا نتحفك ببعض هـٰذه السنن.

أـ سوء عاقبة المكذبين[1]:

وهـٰذه السنة واضحة جدًا في كتاب الله سبحانه وتعالىٰ، والواقع التاريخي يصدق ذٰلك ويبينه، فالذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسله وعاثوا في الأرض فسادًا أوعدهم الله بسوء العاقبة.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل: ٦٩]

وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟

---

(١) يحسن مراجعة بعض السور التي ذكرت جملاً من قصص الأنبياء مع أممهم، مثل: سورة الأعراف، والشعراء، والنمل، والقمر.

مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٣٢ـ ٤٠].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة].

فالأمم السابقة قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وقومه، كلهم أخذهم الله بعذاب الاستئصال في الحياة الدنيا جزاء كفرهم بالله وتكذيبهم لرسله وطغيانهم في الأرض.

وما جرى من تحقق هذه السنة في الماضي سيجري مثله في الحاضر والمستقبل لكل من أعرض عن ذكر الله وشرعه إلاَّ أنَّ هذه الأمة مستثناة بجملتها من عذاب الاستئصال والسنة العامة استجابة لدعوة النَّبي ﷺ «**أن لا يهلك أمته بسنة عامة**»[1] لأنَّها الأمة التي تحمل الرسالة الخاتمة، ولأنَّها لا تخلوا من الطائفة المنصورة القائمة بالحق إلى قيام السَّاعة، ولكنها في غير منجاة من المصائب والعقوبات والفتن إذا هي قصَّرت في القيام برسالتها من الدَّعوة إلى دين الله وتطبيقه في

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة حديث رقم: (٢٨٩) من حديث ثوبان، وسعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنهما ـ.

ذات نفسها، وجهاد أعداء الله من الكافرين والمنافقين.

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورىٰ: ٣٠].

وقال تعالىٰ: ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر: ٤٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل: ١١٢].

ب ـ مداولة الأيام بين النّاس:

قال تعالىٰ: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

فمن حكمة الله سبحانه وتعالىٰ وعدله أنّه يداول الأيام بين النّاس من الشدة إلىٰ الرّخاء، ومن الرخاء إلىٰ الشدة، من الفقر إلىٰ الغِنىٰ، ومن الغِنىٰ إلىٰ الفقر، من النصر إلىٰ الهزيمة، ومن الهزيمة إلىٰ النصر، وهٰكذا حتىٰ يختبرهم ليتميَّز الصادق من الكاذب، والصابر الشاكر من الهلوع الفاجر، وهٰذه المداولة لها أسباب، من قبل البشر، وهٰذه الأسباب مرتبطة بالأمر والنّهي الشرعيين.

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٧]. وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ [الرعد: ١١].

جـ - زوال الأمم بانتشار الفساد والظلم:

أمر الله سبحانه وتعالىٰ بالإصلاح والعدل ونهىٰ عن الفساد والظلم، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [يونس: ٨١].

وقال تعالىٰ في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنِّي حرَّمتُ الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكُم محرَّمًا فلا تظالموا... الحديث**»[١].

وأعظم الاصلاح تحكيم شرع الله وإقامة العدل بين عبادالله، وأكبر الظلم والفساد الشرك بالله والإعراض عن منهج الله وتولي أعداء الله، وهٰذه أمراض وأسباب مؤذنة بالزوال والخسران في الدنيا والآخرة قال تعالىٰ مبيِّنًا بعض أسباب زوال الأمم: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٦].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص: ٥٨]، وقال تعالىٰ موضحًا السبب المانع من الهلاك والزوال: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود: ١١٧].

ولا حظ دقَّة التَّعبير «مصلحون» أي قائمون بالإصلاح والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، لا مجرَّد وجود الصلاح الذَّاتي.

وقد بيَّن سبحانه وتعالىٰ في آيات أخرىٰ أسباب التمكين وصفات الممكنين، فقال تعالىٰ: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ

---

(١) صحيح مسلم(٤/ ١٩٩٤)، حديث رقم: (٢٥٧٧).

ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور: ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج: ٤١].

والواقع التاريخي قديما وحديثاً يصدق هٰذه السنة الإلٰهية ويزيدها ايضاحًا.

فمن التاريخ القديم، الأمم السابقة كما في قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر: ٦ـ ١٤].

ومن التاريخ الحديث، ما نلاحظه من ضعف الأمة الإسلامية وتفرقها مع كثرة عددها وسعة مواردها الاقتصادية ولكنها قصَّرت في تحقيق شروط التمكين واكتساب صفات الممكنين مع انتشار الظلم والقهر، ولهٰذا قيل: إنَّ الله يقيم الدَّولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة(١) فالعدل أساس الملك والتمكين والاستمرار.

ومما ينبغي الإشارة له أنَّ مقتضىٰ عدل الله سبحانه وتعالىٰ أن يعطي العامل جزاء عمله، ولما كان الكافر لاحظَّ له في الآخرة فإنَّه ينال جزاء عمله في الدُّنيا، قال تعالىٰ: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الإسراء: ١٨].

---

(١) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/ ١٤٦).

وما نشاهده اليوم في واقع العالم الغربي من بسط النفوذ والسيطرة في الأرض هو من باب الاستدراج والإملاء للكافرين، وهو ثمرة لسعيهم في الحياة الدُّنيا واكتشافهم لقوانين التقدم المادي قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

فهو فتح ولكن بدون بركة، فتح يصحبه القلق، والخوف، والأمراض والحروب ثم ينتهي حتمًا إلىٰ الزوال والهلاك، فإنَّه لا تمكين مطلق ومستمر إلاَّ لأهل الإيمان والتقوىٰ قال تعالىٰ: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال رسول الله ﷺ في الحديث المتَّفق عليه: «إنَّ الله عزَّوجل يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته»[1]، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]، فهـٰذه سنة التمكين المؤقت للكافرين استدراجًا لهم وجزاءًا علىٰ سعيهم وكدحهم في عمارة الأرض وهو أمر متاح للمؤمن ولغيره.

د ـ سنة التغيير عن طريق الفعل الإنساني

ومعرفة هـٰذه السنة والعمل بها مفيد لواقع العالم الإسلامي اليوم فما أصاب المسلمين في عصورهم المتأخرة من التخلف والانحطاط هو بسبب تقصيرهم في بذل الأسباب المؤدية إلىٰ التقدم.

---

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي موسىٰ الأشعري، وهـٰذا لفظ مسلم، انظر: صحيحه: (٤/١٩٩٧) حديث رقم: (٢٥٨٣).

قال تعالىٰ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

وقال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فالتغيير يبدأ من النفوس، فإذا كانت الأمة علىٰ خير واستقامة وبذل وسعي جاد في إقامة العدل والحضارة مكَّن الله لها، واستمرَّ تمكينه ما دامت محافظة علىٰ ذٰلك، أما إذا قصَّرت أو تولَّت عمَّا ذُكِّرت به وتركت وظيفتها من الدَّعوة إلىٰ دين الله، وعمارة الأرض بشرع الله فإنَّه يزول عنها التمكين.

فحدوث التغيير من الله مرتب علىٰ حدوثه من البشر، وهٰذا الترتيب يضع البشر أمام مسؤليتهم في إحداث التغيير إما إلىٰ صعود وارتفاء أو إلىٰ هبوط وانحطاط.

قال تعالىٰ مخاطبًا المؤمنين الذين شهدوا معركة أُحد ووقعت عليهم الهزيمة: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فوقوع المصيبة كان بسبب المخالفة من الرماة الذين كانوا علىٰ جبل أحد، وقد أمرهم رسول الله ﷺ بالبقاء علىٰ الجبل لحماية ظهور المؤمنين مهما كانت النتيجة، ولكن لرغبة بعضهم في الأموال والغنائم أخلوا مكانهم، مما سبب انتكاسة الموقف ووقوع المصيبة.

فلا بد من بذل الجهد وتغيير واقع الأمة من التخلف والضعف وامتلاك أسباب التقدم حتىٰ يبدأ التحول الاجتماعي والسياسي والثقافي نحو الحضارة المتكاملة، حضارة الإسلام الخالدة كما أقامها الأسلاف.

هـ ـ نصر الله للمؤمنين:

المؤمنون عباد الله الذين عرفوا حقه سبحانه وتعالىٰ عليهم، فقاموا به فكان جزاؤهم منه أنَّه ينصرهم ويؤيدهم، ويطمئن قلوبهم ونفوسهم، قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر: ٥١].

وقال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمَّد: ٧]

وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم: ٤٧]

وقال تعالىٰ: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة: ٢١]والآيات في ذٰلك كثيرة جدًا.

وتاريخ الأنبياء يوضح هٰذه السُّنة فإنَّ الذين كذبوا رسل الله قد أهلكهم الله، وأنجىٰ رسله والذين آمنوا معهم وصدقوهم.

قال تعالىٰ: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ [هود: ٩٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧١].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٥].

وخاتم الرسل محمَّد ﷺ أيده الله وحفظه ونجاه من كيد الكافرين ونصره عليهم.

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٢]

وقال ﷺ: «نصرتُ بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»(١).

وكذلك تاريخ الأمة المسلمة لما كانت محققة لشرط الاستخلاف والتمكين تحقق لها النصر المبين في واقع الأرض فامتدت فتوحاتها في سنوات عديدة شرقًا وغربًا من حدود الصين إلىٰ سواحل الأطلسي.

وأحب أن ألفت نظرك أخي طالب العلم إلىٰ أنَّ مفهوم النصر ليس مقتصرًا علىٰ الغلبة المادية وإنما الثبات على العقيدة الصحيحة مهما كانت النتائج المادية هو الانتصار الحقيقي، والغلبة في الميدان الأرضي إنما هي نتيجة وثمرة للثبات علىٰ العقيدة، ولذلك قال سبحانه وتعالىٰ موجهًا المؤمنين إلىٰ هـٰذا المعنىٰ يوم أن هزموا في معركة أحد: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

و- سنة التدافع:

قال تعالىٰ: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥١] وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري(٢/ ٥٢٠)، مع فتح الباري وصحيح مسلم(٢/ ٦١٧) رقم: (٩٠٠).

مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠].

لقد دلَّت الآيتان علىٰ أنَّ الله يدفع بأهل الحق أهل الباطل فيندفع بذٰلك شرهم، وتصلح الأرض، وتُعمَر أماكن العبادة بذكر الله وتوحيده، وهٰذا من فضل الله على العالمين، وهٰذا التدافع أو الصراع بين الحق والباطل سُنَّة ربانية ملحوظة من خلال آيات الكتاب الحكيم ومن خلال الواقع البشري عبر التاريخ قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود: ١١٨].

فالبشرية قد انقسمت إلىٰ أُمتين منذ أن وقع الشرك في القوم الذين أُرسل إليهم نوح عليهم السلام، وكانوا قبل ذٰلك أمة واحدة علىٰ الإسلام والتوحيد.

ولا بد من قوع الصراع بين هاتين الأمتين المختلفتين في الاعتقاد ومنهج الحياة.

وقد فرض الله الجهاد لدفع شر الكفار وإزالة الطواغيت التي تمنع حريَّة وصول الحق إلىٰ النَّاس. ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فإذا كان الدين كله لله تحررت البشرية من الطواغيت، وخرجت من الظلمات إلىٰ النور، وساد الأمن والاستقرار، أما إذا بقي في الأرض كفار ومشركون فإنَّ الصراع والتدافع أمر لابد منه. وإنَّ الهدف من معرفة هٰذه السُنة هو شد العزائم لتحقيق المجتمع المسلم الذي ينفذ أمر الله وشرعه في الأرض كلها وفق فريضة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وما الجهاد إلاّ شعبة من شعبها.

إنَّ التدافع سنة جارية في هٰذه الحياة، والله سبحانه وتعالىٰ

يوجهنا إلىٰ استثمار هـٰذه السنة وأخذ خيرها ودفع شرها، وهـٰذا الشر لا يدفع إلاَّ بالجهاد في سبيل الله على مختلف مراتبه وأنواعه ليتحقق كون الدين كله لله في الأرض كلها، وذٰلك أنَّ الجهاد في سبيل الله لإقامة الدين، هو وظيفة الأمة المسلمة وطريقها لتحقق وعد الله لها قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٩].

والصراع بين الحق والباطل أمر مستمر لا تنهيه معركة بل ولا حتىٰ مئات المعارك، إنَّه يتَّخذ عدَّة صور وأشكال ويمتد في مساحات طويلة ومتعددة، داخلية، وخارجية، تجعل الإنسان يقضي حياته كلها في هـٰذا الصراع، ولكنه قد يهدأ في بعض الجوانب، ويشتد في أخرىٰ، وهـٰكذا تمضي الحياة في صراع.

إنَّ استمرار الصراع يأتي من كثرة الأعداء، ومن تعدد ميادين المعارك ففي الداخل (النفس، والأموال، والأولاد، والأزواج، والمنافقون) وفي الخارج: (الشيطان، والمشركون، والكفار من أهل الكتاب، وليس التدافع والصراع كله بين أهل الحق وأهل الباطل، بل أهل الباطل بينهم صراع وخلاف شديد، وهـٰذا الصراع قد يكون في مصلحة المسلمين إذا استطاعوا استثمار ذٰلك.

٢ـ الفائدة الثانية هي: التعرف علىٰ معالم تاريخ الإنسانية:

إنَّ معرفة تاريخ الإنسانية، وكيف بدأت البشرية؟ ومتىٰ بدأت؟ وما هي الأطوار التي مرَّت بها؟ أمر تشتاق له الأنفس، ولكن لطول ذٰلك وتعذر المعرفة التفصيلية لكل فروع التاريخ فإنَّ هناك معالم لا ينبغي الجهل بها.

وإنّ من أهم هٰذه المعالم:

أ- معرفة تاريخ الأنبياء عليهم السلام ودعوتهم لأقوامهم، ومواقف هٰؤلاء الأقوام منهم، وجهاد الأنبياء لتبليغ رسالة الله وتحملهم الأذىٰ في سبيل ذٰلك، وما هو المصير الذي آل إليه حال من كذب الرسل والأنبياء؟ وأنواع العقوبات التي حلَّت بهم، وما هي عاقبة الرسل ومن آمن بهم وصدقهم؟

كل تلك معالم مهمة تتعرَّف عليها من خلال دراستك لتاريخ البشرية.

ب - التعرف علىٰ سيرة النَّبي محمَّدﷺ وذٰلك باعتباره عليه الصلاة والسلام خاتم الرسل، وصاحب الشريعة الخاتمة الباقية والناسخة لكل الشرائع، والعامة للثقلين، ولكون سيرته ﷺ تطبيق عملي للشريعة التي كلفنا العمل بها، ولنعرف من سيرته ﷺ منهج التَّربية الذي أخرج الجيل المثالي: «جيل الصحابة» رضي الله عنهم وكيف وصلوا إلىٰ هٰذه القمة العالية من التربية المتكاملة؟

ج - التعرف علىٰ تاريخ الخلفاء الراشدين بوجه أخص وتاريخ الصدر الأول من الصحابة والتابعين وتابعيهم بوجه أعم، لأنَّهم الجيل الأسوة، والسلف الصالح والمثل المقتفىٰ للفرقة الناجية: «من كان علىٰ مثل ما أنا عليه وأصحابي»[١]، وهم خير القرون كما أخبر المصطفىٰ ﷺ[٢]: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم...» الحديث، والخلفاء

(١) رواه الترمذي (٥/٢٦)، وحسنه، وصححه الحاكم في المستدرك(١/١٢٨)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم: ٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) رواه البخاري ومسلم، اللؤلؤ والمرجان فيما اتّفق عليه الشيخان(٣/ ١٨١).

الراشدون ورد الأمر النَّبوي باتباع سنتهم: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»(١).

وقوله ﷺ: «**اقتدوا باللَّذين من بعدي أبي بكر وعمر**»(٢).

د ـ ومن أبرز المعالم في تاريخ الإنسانية معرفة سير العلماء والدعاة والمصلحين وجهادهم في سبيل الله وإقامة شريعته، وما هم عليه من المنهج القويم والأدب والسلوك الحميد.

هـ ـ معرفة أثر الإسلام في حياة البشرية:

هٰذا من أهم المعالم التي ينبغي العناية بها والتركيز عليها في الدراسات التاريخية وذٰلك أنَّ الإسلام قد أحدث أثرًا هائلاً في حياة البشرية، حيث قلب الأوضاع الجاهلية والأعراف الوطنية ووحَّد البشرية في اتجاه واحد، تعرف ربها، وتسير في الأرض لتحقيق مرضاته، وتتآخىٰ فيما بينها ويسودها الوئام والأمن، وتحافظ علىٰ الاستقرار في ظل عبودية خالصة لله، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢].

و ـ **معرفة جناية الإلحاد والوثنية علىٰ الحياة البشرية**: وذٰلك يتبيَّن من دراسة أوضاع الجاهلية، ونظمها وأعرافها وأحوالها الاجتماعية، ومعرفة التجارب والمصائر التي انتهت إليها تلك الجاهليات، وماذا

---

(١) رواه أبوداود(٤/ ٢٠١)، والترمذي(٥/ ٤٤)، وقال حديث صحيح وأحمد في المسند (٤/ ١٢٦).

(٢) أخرجه أحمد(٥/ ٣٩٩)، من حديث حذيفة وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم: (١٢٣٣).

جلبت علىٰ البشرية من الدمار والفساد الخلقي والانحطاط الفكري، وذٰلك وفق الميزان المعياري المستقَىٰ من المنهج الرباني الذي يزن النتاج الحضاري لكل أمة من الأمم بالميزان العقدي الصحيح، ويستخلص العبر والدروس من تلك الأوضاع ويتفادىٰ مواطن الخطر والدمار.

٣ـ تأكيد جملة من الحقائق في حياة البشر:

المنهج التاريخي وسيلة من وسائل المعرفة وكشف الحقائق، ولذا فإنَّ دراسة التاريخ بوعي تساعد علىٰ تأكيد جملة من الحقائق المهمة في حياة البشرية ومنها:

أـ أنَّ توحيد الله هو الأصل في حياة البشر والشرك طاريء عليها، فَتَعَرُّفنا علىٰ تاريخ آدم عليه السلام وذريته إلىٰ عهد نوح عليه السلام، يبيِّن لنا أنَّ البشرية كانت علىٰ التوحيد ولا تعرف الشرك أبدًا، وأوَّل ما ظهر الشرك كان في القوم الذين بعث إليهم نوح عليه السلام.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: **«كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم علىٰ شريعة من الحق فبعث الله النَّبيين مبشرين ومنذرين»**(١).

ب ـ وحدة أصل البشرية:

ومن الحقائق المهمة معرفة وحدة أصل البشرية، فآدم ـ عليه السلام ـ هو أوَّل البشر كما في القرآن الكريم، وهو نبي مكلم(٢) خُلق

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير(٤/ ٢٧٥)، وانظر: تفسير ابن كثير(١/ ٣٦٤)، وقد صرَّح بتصحيح قول ابن عباس سندًا ومعنًىٰ.

(٢) انظر: مشكاة المصابيح حديث رقم: (٥٧٣٧)، وقال: رواه الإمام أحمد من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ.

في الجنة وأهبط إلىٰ الأرض لحكمةٍ أرادها الله، وبهٰذا ندرك ضلال المقولات والتصورات الجاهلية التي تزعم أنَّ البشرية بدأت وثنية تعبد آلهة متعددة ثم تطورت أديانها حتىٰ وصلت إلىٰ التوحيد، وإنَّما العكس هو الصحيح حيث بدأت البشرية موحدة لله ثم تلاعبت بها الشياطين حتىٰ أشركت مع الله غيره، وفي الحديث القدسي «**خلقتُ عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين**»(١).

جـ ـ استخلاف الإنسان في الأرض للقيام بعبادة الله وتوحيده:

الإنسان مستخلف في الحياة الدنيا، وما في الكون مسخر له، ولذٰلك لا يشعر المسلم الذي يؤمن بهٰذه الحقيقة بأي عداء أو صراع بينه وبين الكون بل يجد التيسير والانسجام، لأنَّ هـذا الكون عابد لله بخلقته ومسبح له بفطرته.

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١].

وقال تعالىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ [الحشر: ١].

أما الكافر: فلأنَّه شاذ عن نظام هـٰذا الكون الطائع لله المسبح له، فهو يشعر بصراع بينه وبين الطبيعة وهـٰذا الكون، ويشعر بفخر وخيلاء إذا هو تمكن من معرفة شيء يسيْر من أسرار الكون، ويعلن بكل تبجح أنَّه انتصر علىٰ الطبيعة وأنَّه يتحداها، ويظهر ذٰلك حتىٰ في مسميات أجهزته، فالصاروخ الروسي الذي أطلق لارتياد القمر سموه: «شالينجر» ومعناه: «التحدي»، فما كان إلاَّ أن فجَّره الله لحظة إطلاقه

---

(١) صحيح مسلم(٤/ ٢١٩٧)، حديث رقم: (٢٨٦٥).

وهم ينظرون إليه.

ومصداق ذٰلك في الواقع التاريخي، أنَّ الرياح التي تأتي بالمطر والغيث الذي يحيي به الأرض بعد موتها، تكون وسيلة عقوبة وتدمير للكافرين، فأغرق الله قوم نوح بالطوفان، وأهلك عادًا بالريح الصرصر، وهزم الأحزاب بالصبا.

وحصل للصحابة - رضي الله عنهم - من أنواع الكرامات ما يوضح ذٰلك ويبينه، فعمر بن الخطاب، وهو بالمدينة ينادي أحد قادته في بلاد العراق: يا سارية الجبل الجبل»، ويقول: «إنَّ لله جنودًا ولعلَّ بعضها أن يبلغهم» فما كان من سارية ومن معه من المسلمين إلاَّ أن أجمعوا علىٰ الإسناد في الجبل(١).

ويكتب عمر بطاقة يخاطب فيها نيل مصر فيقول:

«إن كنت تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهَّار هو يجريك فنسأل الله الواحد القهَّار أن يجريك».

فلما ألقاها عمرو بن العاص في النيل فاض في ليلة واحدة ستة عشر ذراعًا(٢).

وهٰذا عقبة بن نافع يريد أن ينزل في القيروان فيجد المكان مليئًا بالحيَّات والوحوش فينادي يا أهل الوادي، اظعنوا فإنا نازلون» فترحل الدواب والوحوش عن المكان ليبنىٰ فيه قاعدة ومركز انطلاق للمسلمين

---

(١) الطبري(٤/ ١٧٨)، والبداية والنهاية(٧/ ١٣١)، وقال: إسنادها جيد حسن. ومعنىٰ الإسناد في الجبل: أي صعوده.

(٢) مناقب عمر لابن الجوزي ص(١٧٣)، والبداية والنهاية(٧/ ١٠٠).

في بلاد المغرب[١].

د ـ حاجة الأمم إلىٰ الأنبياء والمصلحين:

وهٰذه من الحقائق المهمة التي تتجلَّىٰ لمن يدرس تاريخ الأمم الكافرة ويرىٰ ما وصلوا إليه من الانحراف والضلال، وما سادهم من الجهل والظلم وسوء الأحوال، فإذا جاء نبي أو مصلح بأثر نبوة ورسالة ظهر أثره وفضله عليهم، وهٰكذا في الأمة المسلمة، كلما بعد بهم العهد يحتاجون إلىٰ مصلح ومجدد يجدد أمر الدين ويجلّيه للنَّاس، ويبين الانحرافات عن الصراط المستقيم، وقد تكَفَّل سبحانه وتعالىٰ لهٰذه الأمة بأنَّه يبعث فيها علىٰ رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها[٢].

فالنَّاس لا بد لهم من دعاة وعلماء يرشدونهم إلىٰ الحق ويلزمونهم العمل به ولذٰلك بعث الله الرُّسل تترىٰ في الأمم السابقة، أما هٰذه الأمة فقد هيَّأ لها المجددين، وهٰذا من رحمة الله بالإنسان حيث لم يتركه لفطرته وحدها ولا لعقله وحده، بل أرسل الرسل وأنزل معهم الكتب ليقوم النَّاس بالقسط، وهٰذا من أوضح الأدلة علىٰ قصور العقل البشري وأنَّه لا يقوم وحده ولا يهدي بدون شرع من الله.

٤ ـ الحصانة الفكرية من الانحراف عن منهج الله:

دارسة التاريخ التاريخ بوعي توجد لدىٰ الدارس حصانة فكرية من الانحراف والشعوذة والخرافات، وذٰلك أنَّه منهج بحث يُعرَّف دارسه

---

(١) ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب ص(٢٦٥)، وتاريخ خليفة ص(٢١٠)، وقال الحافظ في الإصابة (٥/ ٦٤)، إسناد خليفة إسناد حسن.

(٢) أخرجه أبوداود والحاكم في المستدرك وانظر: صحيح الجامع الصغير رقم: (١٨٧٠).

علىٰ طبائع الأشياء وحقائق الأمور وحيل الناس، وأباطيلهم، وقد استخدم علماؤنا المنهج التاريخي في كشف الأباطيل والبدع في الشرع، لأنَّ الدين هو: ما كان عليه رسوله الله ﷺ وأصحابه، وما لم يكن يومئذٍ دينًا فلا يكون بعدهم دينًا. وقد وصف رسول الله ﷺ الفرقة الناجية بقوله: «ما أنا عليه وأصحابي»(١)، وقد استخدم شيخ الإسلام ابن تيمية المنهج التاريخي في إبطال المشاهد المبنية في بعض ديار الإسلام، ومنها: المشهد الحسيني بالقاهرة، فيقول: لم يكن علىٰ عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم شيء من المشاهد في بلاد الإسلام، لا الحجاز، ولا اليمن، ولا الشام، ولا العراق، ولا المغرب، لا علىٰ قبر نبي ولا صاحب ولا أحد من أهل البيت ولا صالح أصلاً، بل عامّة المشاهد محدثة بعد ذٰلك»(٢).

فإذا عرفت أيها الموفق ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، والسلف الصالح، عرفت الدين الحق، وأعرضت عمَّا سواه مما أحدثه الناس بعدهم وكانت هٰذه المعرفة بإذن الله عاصمة من الانحراف.

٥ـ المساعدة علىٰ فهم الحاضر وتحليله والتخطيط للمستقبل:

دراسة التاريخ الذي هو في الحقيقة ماضي الإنسان، تساعد علىٰ فهم حاضره الذي يعيشه، ومن ثم القدرة علىٰ التخطيط للمستقبل، خاصة إذا تماثلت الظروف وتشابهت الدوافع ففي الأمثال العربية: «ما أشبه الليلة بالبارحة»(٣) والقول المأثور «التاريخ يعيد نفسه» قول

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رأس الحسين ص(١٦٧).

(٣) مثل يضرب عند تشابه الشيئين، انظر الميداني، مجمع الأمثال(٢/ ٢٧٥).

صحيح، والتعبير القرآني عن هٰذا المعنىٰ «بالسنن» أدق وأولىٰ بالاستعمال، وإنَّ كثيرًا من الأحداث لها جذور عقدية وتحركها اتجاهات فكرية تستمد من الماضي، وتخطط للمستقبل، فليست الأحداث كلها وليدة وقتها، وقد أشارت بعض الآيات إلىٰ وحدة التصرفات وتشابه الأقوال عند تشابه البواعث وذٰلك في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة: ١١٨].

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

فالأمم المكذبة لم يلحق بعضهم بعضًا حتىٰ يتواصوا بالتكذيب للرسل غير أنَّ اشتراكهم في صفة الطغيان والكفر بالله هو الذي وحَّد موقفهم من الرسل.

٦ـ اكتساب التفكير التاريخي:

وهٰذه يا أخي فائدة ينبغي أن لا تفوتك فدراستك التاريخية تكسبك هٰذا التفكير الذي يجعلك تربط الأحداث بأسبابها، وتبحث عن تعليل لها وتفسير لاتجاهاتها، وإدراك تطورها ومراحل سيرها، وتتعلم من ذٰلك أن لا تتعجَّلْ في الحكم عليها أو الجزم بنتائجها ونهاياتها، وإنما عليك أن تربط الأمور بعواقبها وأن تفسر الأحداث في ضوء السنن الربانية التي تتسم بالثبات والانضباط.

التاريخ ودراسة المجتمع

لقد اتَّضح لك من خلال عرض أهداف دراسة التاريخ وفوائده أهمية علم التاريخ وفائدته للمجتمعات البشرية، وأنَّه يعني بدارسة المجتمعات الإنسانية وتطوراتها الفكرية ومخلفاتها الحضارية وأحوالها الاقتصادية والسياسية مما يفيد من التجارب الماضية في دراسة الحاضر والتخطيط للمستقبل، كما أنَّه ينبغي أن نلاحظ تطور المجتمعات البشرية في النواحي المادية والدينية، وأيضًا في مستواها الثقافي والفكري بحسب ما تحصل عليه من العلوم والمعارف السابقة، وما تضيفه إلىٰ تلك المعارف من التقدم المادي والتكنلوجي الذي هو نتيجة استمرار التجارب البشرية، وتطوير الحياة الاجتماعية، وتأثير ذٰلك في السلوك الاجتماعي والتقدم المدني، فالمخترعات المادية والتقدم فيها مُيسِّرات للحياة إذا استخدمت الاستخدام الصحيح الذي يراعي النظم الاجتماعية، والمبادىء الاعتقادية التي يقوم عليها البناء الاجتماعي السليم والمستمر في البناء الحضاري للأمة، فإنَّ العقيدة الإسلامية هي أساس البناء وقاعدته، وهي لا تمانع من الاستفادة الحضارية من الماضي، وتطوير ذٰلك الموروث إلىٰ الأحسن والأكمل إذا كان ذٰلك الموروث لا يخالف مبادءها وأسسها، والمؤرخ عليه أن يهتم بالأصول العقدية والمبادىء الفكرية، وأن يميز بين الصحيح منها والدخيل حتىٰ يساعد في بناء المجتمع المسلم المميَّز بمنهجه وسلوكه الحضاري الذي يقتفي سنة النَّبي ﷺ ومنهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فإذا سلم المنهج وتحرر كان البناء الحضاري والاجتماعي بناءً

صحيحًا غير متأثر بعقائد وسلوكيات المجتمعات غير الإسلامية، ومع هٰذا فإنَّه يواصل استفادته من كل ما توصلت إليه الحضارة من تقدم مادي وتقني يساعد في تطوير حياة المجتمع وترقيتها علميًا وفكريًا وماديًا.

علاقة علم التاريخ بالعلوم الأخرى:

علم التاريخ واسع النطاق، وله علاقة بعدد كبير من المعارف والعلوم الأخرىٰ، والمؤرخ ينبغي أن يكون واسع الاطلاع ومتعدد الفنون والمواهب، ومن المعلوم أنَّ لكل علم وفن تاريخ ومراحل مرَّ بها حتىٰ اكتمل بناؤه، والإنسان هو صانع التاريخ والحضارة، فالطب مثلاً له تاريخ، والأدب واللغة لهما تاريخ، وكذا علم الفلك، وعلم الشريعة والفرق، والأديان، والشعوب والأجناس والبلدان والبقاع.

فالمؤرخ محتاج إلىٰ معرفة تاريخ المذاهب والاتجاهات الفكرية والتطورات التي سارت فيها، كما أنَّه محتاج إلىٰ معرفة اللغات المختلفة والخطوط لدراسة الوثائق والآثار المادية والفكرية المتخلفة عن مختلف الأمم والشعوب، ولا بد أن يهتم بعلم التوثيق والنقد للنصوص والأخبار وهٰذا يجده عند علماء الحديث النبوي في فروع المصطلح، وعلم نقد الرجال، والجرح والتعديل، كما أنَّ صلة المؤرخ بعلم الجغرافيا والبلدان وأجناس الشعوب وأنساب القبائل والأسر صلة قوية ولا غنىٰ له عن ذٰلك، إذ لا بد أن يعرف طبيعة الأرض، وطرقها ونتاجها الاقتصادي وإمكاناتها الزراعية والطبيعية من المعادن والبترول ومختلف الثروات، فكل هٰذه المعرفة تساعده علىٰ فهم الأحداث واتجاهاتها وتساعده في تحليلها كما أنَّ الاتجاهات الفكرية والعقدية لها أثر كبير في تفسير الأحداث ومعرفة بواعثها وأصولها.

والصلات بين الأجناس وأنساب الأسر والقبائل ذات أهمية في معرفة المواقف وتحليلها.

وبهٰذا يتَّضح سعة المكتبة التارخية وتنوع معارفها، وصلة علم التاريخ بالعلوم الأخرىٰ مثل: علم اللغات والسياسة والاقتصاد الجغرافيا والمذاهب والأديان.

المصادر الأساسية للتاريخ

التاريخ معرفة نقلية تعتمد علىٰ المصادر والرواة، فإنَّ التاريخ كما عرفنا خبر عن الوقائع والأحداث ووصف لها، ويصنف العلماء المصادر الأساسية للمعرفة التاريخية إلىٰ أقسام هي:

١ـ الوثائق والأثار المتخلفة عن الماضي سواء كان بعيدًا أم قريبًا، والوثائق غالبًا تشمل المكتوب بقصد التوثيق لعمل من الأعمال، مثل: العقود والأوامر والمراسيم والاتفاقيات، والكتابات الرسمية والرسائل والتي قد لا يقصد بها التاريخ عند تدوينها ولكنها من أقوىٰ أدلة التاريخ.

أما الآثار فتنصرف في الغالب إلىٰ النقوش علىٰ المباني والأحجار مثل: لوحات التأسيس، وشواهد القبور، والرسوم والأشكال وغيرها كما تشمل المخلفات التراثية والحضارية من المباني والجسور، والمصنوعات المعدنية والفضية والسلاح وأدواته.

وهٰذا القسم من المصادر مهم جدًا وهو دليل مادي علىٰ الحدث والعصر الذي وقع فيه لكن علىٰ المؤرخ والأثاري التحقق من صحة

الأثر وأنّه أصيل غير مزور حتىٰ لا يعتمد علىٰ مصدر غير صادق.

٢ـ الشارات والرنوك والأختام التي تستخدمها الدول وكذا وحدات الوزن والقياس، فإنها ذات أثر مهم في اثبات التواريخ وأسماء الأشخاص والبلدان التي صدرت فيها.

٣ـ المسكوكات من العملات النقدية التي تستخدمها دولة من الدول لها دلالات تاريخية لما يدون عليها من المعلومات المهمة مثل: تاريخ ضرب العملة ومكانه، واسم الحاكم الذي أمر بذلك، والعبارات المدونة علىٰ العملة ذات الدلالة الفكرية والعقدية مثل: لا إلٰه إلاَّ الله، لا غالب إلاَّ الله، وقد يرسم عليها شعار الدولة وعلمها، وهٰذا له أثر ودلالة كما أنَّ مستوىٰ الصناعة ودقة الخط واتقانه يدل علىٰ المستوىٰ الحضاري والتقني للدولة.

٤ـ الروايات والأخبار الشفوية التي يتناقلها الرواة لها دلالات، ولكنها ذات شأن خطير إذا تم الاعتماد عليها من غير تمحيص إذ أنَّ الرواية الشفوية كلما بعدت أحداثها التاريخية يدخلها الزيادة والتحريف حتىٰ تتحول إلىٰ أسطورة من الأساطير والقصص الخرافي الشعبي. فالمؤرخ بحاجة إلىٰ حاسة نقدية ومقارنة بين الروايات، يستخرج بها الخبر المقبول ويرد الزيادات والأساطير، وخاصة إذا تعلّقت بشخص له بطولات، أو قبيلة أو بلد، وذٰلك لوجود دواعي التزيد والرَّغبة في البروز والمفاخر أو المثالب.

٥ـ المصادر المدونة في المؤلفات، سواء كانت مخطوطة أم مطبوعة، وسوف يأتي تفصيل لها في الفصل الثاني من هٰذا البحث.

ومما ينبغي الإشارة إليه أنَّ النصوص الشرعية في الكتاب والسنة

الصحيحة تعتبر المصدر الأساس الموثوق به في تواريخ الأمم الماضية مما وردت الإشارة إليه فيها من حيث المعلومات والأشخاص والوقائع، أما من حيث تفسير الحوادث وإعطاء التصور الذي يحكم هٰذا التفسير ويوضح العلل والأسباب والنتائج فإنَّ الوحي هو المصدر الذي يعطي ذٰلك كله للمؤرخ المسلم ويوضح له المنهج الصحيح في تفسير الحوادث وأسباب قيام الحضارات والدول وأسباب انهيارها وزوالها.

أسئلة وتمرينات على الفصل الأول

س١ : لماذا اهتم كبار العلماء بعلم التاريخ؟

س٢ عدد أهداف دراسة التاريخ؟

س٣ ما معنى السنة الربانية، وما هي أنواع السنن؟ وأيها يدرك من خلال دراسة التاريخ؟

س٤ : هل لمعرفة السنن الشرعية فائدة؟ وما هي؟

س٥ : من السنن الشرعية سوء عاقبة المكذبين، هل تعرف سورًا ذكرت نماذج متعددة من إهلاك الله الأمم المكذبة؟ تعرَّف على أنواع الدمار الذي أصاب الأمم السابقة؟

س٦ : اكتب مقالة في حدود صفحة واحدة عن أثر الظلم والفساد في زوال الأمم؟

س٧ : اذكر أربعة نماذج من نصر الله للمؤمنين من واقع تاريخ الرسل وسيرة النَّبي ﷺ؟

س٨ : هل تعرف مفهوم النصر؟ ما هو؟

س٩ : هل تستطيع أن تساهم بمقالة من تعبيرك عن سُنَّة التدافع؟

س١٠ : ما هي أهم المعالم في تاريخ الإنسانية؟

س١١ : هل أدركت جناية الالحاد والوثنية على حياة البشرية؟ وبأي شيء أدركت هذه الجناية العظيمة؟

س١٢ : ما هي الحقائق التي تأكدت لديك من خلال استعراضك لتاريخ البشرية؟

س١٣ : كيف نجعل من دراسة التاريخ حصانة فكرية ضد الانحراف؟

س١٤ : هل التاريخ يعيد نفسه؟ وكيف ذٰلك؟

س١٥ : هل تستطيع أن تفهم حاضرك وتُحلل أحداثه؟ جرب ذٰلك بكتابة مقالة تحليلية عن أحد الأحداث التي تعيشها الأمة الإسلامية؟

س١٦ : هل قرأت مقالات أو كتبًا عن التحليل التاريخي؟ وهل اكتسبت التفكير التاريخي؟ أثبت ذٰلك بنموذج واقعي؟

س١٧ : هل اتَّضحت لك أهمية دراسة المجتمع للمؤرخ؟ وما هي علاقة التاريخ بالعلوم الأخرىٰ، وكيف يستفيد منها المؤرخ؟

س١٨ : تعرف علىٰ المصادر الأساسية للتاريخ واكتب مقالة عن واحد منها؟

الفصل الثاني

- التقسيمات الزمنية للعصور التاريخية

- الصفات الواجب توفرها في المؤرخ

- مراحل الكتابة التاريخية

التقسيمات الزمنية للعصور التاريخية

الإنسان محور التاريخ، وهو الذي يؤرخ له، وهو الذي يتولى كتابة تاريخه، وهو يمثل العنصر الأساس في صناعة الأحداث، والزمن ليس إلاَّ وعاء لتلك الأحداث والتغيرات المختلفة، والأرض هي المسرح الذي تحدث عليه الوقائع التاريخية، فالتاريخ مرتبط بالإنسان.

وأوَّل البشر قطعًا هو آدم ـ عليه السلام ـ كما دلَّ علىٰ ذٰلك ظاهر القرآن الكريم، وهو نبي مكلم من الله سبحانه وتعالىٰ(١)، وقد خلقه الله في أحسن صورة، وزوَّده بالعقل والتفكير والإرادة وحرية الاختيار، مع ما تفضَّل به عليه من الوحي الذي يوضح له الأحكام والتشريعات ومنهج الحياة، والمصدر الذي نستقي منه المعلومات عن الإنسان الأول هو القرآن الكريم، فإنَّه المصدر الصحيح والحق الذي لا مرية فيه، أما ما في كتب النبوات السابقة مثل: التوراة والإنجيل فإنَّه غير موثوق به لثبوت دخول التحريف والتبديل فيها، أما النَّص القرآني فقد هيَّأ الله أسباب حفظه وتكفَّل سبحانه بذٰلك فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩] فهو محفوظ بحفظ الله.

وآدم عليه السلام خلقه الله بيده ثم نفخ فيه الروح، وأمر الملائكة بالسجود له تشريفًا وتكريمًا، وأسكن هو وزوجه الجنة كما قال تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ

---

(١) انظر: مشكاة المصابيح حديث رقم: (٥٧٣٧) وقد صححه الشيخ الألباني وقد أخرجه أحمد في المسند من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ.

﴿الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥] لكن آدم بما ركّب فيه من الغرائز والدوافع استجاب لوسوسة الشيطان، ونسي تحذير الله له، فأكل من الشجرة التي مُنع من الأكل منها مع أنَّه قد أبيح له الأكل مما يشاء من الجنَّة غير تلك الشجرة ابتلاءً واختبارًا له، فلما أكل من الشجرة وقع عليه وزوجة عقوبة المخالفة لأمر الله فسقط عنهما لباسهما، وأخذا يستران عوراتهما من ورق الجنة، وأدركا حينئذ عظم ما وقع منهما فاستغفرا الله وتابا إليه، فتاب الله عليهما[1].

وقد اقتضت حكمته تعالىٰ أن يهبط آدم وزوجه إلىٰ الأرض، وأن يهبط معهما إبليس الذي كان السبب في إيقاعهما في المعصية.

وقد استمرَّ الصراع في الأرض بين آدم وذريته وبين الشيطان عدو الإنسان، وتشير النصوص الواردة عن السلف إلىٰ أنَّ مدة ما بين آدم أبوالبشر عليه السلام وبين نوح عليه السلام وهو أول الرسل إلىٰ أهل الأرض عشرة قرون[2]. وكانوا كلهم علىٰ التوحيد[3]، وأنَّ أوَّل انحراف وقع في البشرية عن توحيد الله كان في القوم الذين بعث الله إليهم نوحًا عليه السلام، فقد عبدوا صور الرجال الصالحين الذين ماتوا في زمن

---

(١) قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧].

(٢) اختلف العلماء في المراد بالقرن هل هو الجيل أم الوحدة الزمنية المقدرة بمائة سنة؟ فإذا كان المراد الأول وهو أنَّ القرن هو الجيل، وهو الأظهر، فيكون ما بين آدم ونوح ألاف السنين؛ لأنَّ أعمار أولئك الأقوام طويلة تبلغ الآلاف، فقد أخبر الله عن نوح ـ عليه السلام ـ أنَّه لبث في قومه ألف سنة إلاَّ خمسين عامًا.

(٣) تفسير ابن جرير (٤/ ٢٧٥)، وصححه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٦)، وتفسير ابن كثير (١/ ٦٤)، وقد صحّح قول ابن عباس سندًا ومعنًىٰ.

متقارب ولم يخلفهم أحدٌ في العلم، وقد ذكر الله خبرهم في سورة نوح فقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [نوح: ٢٣] فبعث الله نوحًا عليه السلام إلىٰ أولـٰئك القوم يدعوهم إلىٰ التوحيد وعبادة الله وحده، وينهاهم عن الشرك وعبادة الأصنام والأوثان، وقد مكث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عامًا وهو يعالج أوضاعهم ويدعوهم إلىٰ توحيد الله ولم يؤمن معه إلاّ نفر قليل أما جلهم فقد كفروا واستكبروا وعاندوا الحق وأصروا علىٰ الباطل، فلجأ نوح إلىٰ ربه، وطلب أن ينصره علىٰ القوم الظالمين: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [القمر: ١٠ـ ١٥]، فقد طهر الله الأرض كلها من الكفار وكفرهم بالطوفان، ثم نشأت البشرية من جديد من ذرية نوح[(١)] عليه السلام وكانوا علىٰ التوحيد والهدىٰ، وقد كثرت ذرية نوح من أولاده الثلاثة، سام، وحام، ويافث، وإليهم ترجع أصول الأجناس البشرية، وانتشروا في الأرض وعمروها وصاروا أُممًا وشعوبًا كثيرة، ومع طول الزمن ونسيان العلم واندراسه وقع فيهم الانحراف عن توحيد الله مرة أخرىٰ فاتّخذوا آلهة من دون الله أو مع الله.

والحق الذي لا مرية فيه أنَّ سنة الله المعلومة من كتابه أنه يتعهّد أهل الأرض ببيان الهدىٰ لهم بإرسال الرسل إليهم كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة: ٣٨].

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الصافات: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر: ٢٤] وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الرعد: ٧]، لكن بعض الرسل والأنبياء ذكرت أخبارهم وقصصهم في كتاب الله الذي هو المصدر الصحيح المأمون والصادق عن أخبار الرسل والأنبياء، ومنهم من لم يقص من خبره شيء كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر: ٧٨]، والمذكورون في القرآن من الأنبياء والرسل خمسة وعشرين (١) بينما عددهم في الواقع أكثر من هذا بكثير (٢).

والفترة التي كانت قبل الطوفان لم يصل إلينا شيء من أخبارها وآثارها إلاَّ ما في كتاب الله وما صحَّ عن رسول الله ﷺ.

ويطلق المؤرخون على هذه الفترات عصور ما قبل التاريخ،

---

(١) ذكر في موضع واحد منهم ثمانية عشر عند قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ... ﴾ [الأنعام: ٨٣ـ ٨٦] وسبعة ذكروا في مواضع أخرى، وهم: آدم، وهود، وصالح، وشعيب، وإدريس، وذا الكفل، ومحمَّد صلى الله وسلم عليهم جميعًا، كما ذكر الأسباط بوصفهم، وجاء في السنة ذكر شيث بن آدم، ويوشع بن نون.

(٢) أخرج الإمام أحمد في المسند من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت يا رسول الله: كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًا غفيرًا.
قال الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح (١٥٩٩/٣) إسناده صحيح.

ويقصدون بذلك ما قبل التدوين التاريخي وتعلم الكتابة، وهذا الإطلاق فيه نظر، وهو مبني عند الأوربيين على نظرية التطور التي قال بها داروين في كتابه أصل الأنواع، وتاريخ النبوات في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ينقض هذا، فإنَّ آدم خلق في أحسن تقويم، وكانت صورته أجمل الصور، وقد جمع الله له الحسن كله، وأعطى ابنه يوسف شطر الحسن، ولم يمر بمراحل داروين التطورية التي تخيَّلها عن أصل الإنسان، وقد علَّم الله آدم الأسماء كلها، وأنزل عليه صحفًا، فيها الهدى والأحكام، كما أنَّ شيث ابن آدم أنزل الله عليه صحفًا، وهذا يلزم منه معرفة الكتابة والقراءة منهما أو من قومهما أو منهم جميعًا غير أنَّه لم يصل إلينا من تاريخ الفترات الأولى وثائق ولا أخبار صحيحة إلاَّ ما جاء به الوحي المعصوم وهي قليلة.

ويقسم المؤرخون العصور التاريخية بعد الطوفان إلى ثلاث فترات رئيسة وهي:

١ـ العصور القديمة.

٢ـ العصور الوسطى.

٣ـ العصور الحديثة.

وهذا التقسيم منظور فيه إلى الزمن باعتبار أنَّ الزمن يقبل هذه القسمة الثلاثية أما تحديد بداية كل عصر ونهايته وسماته فإنَّه بحسب واقع تاريخ كل أمة وكل منطقة.

فالتاريخ الأوربي له تقسيمه الخاص به، وكذا تاريخ العرب، وتاريخ الفرس، وتاريخ الهنود، وتاريخ الأفارقة، وأيضًا تاريخ النبوات، والتاريخ الإسلامي من بعثة النَّبي محمَّد ﷺ.

ومن الخطأ البين تعميم التحديد الأوربي للعصور التاريخية، والمبني علىٰ سمات خاصة بهم علىٰ تواريخ بقية الأمم والشعوب التي لها مميزاتها وخصائصها.

والملاحظ أنَّ التحديد الأوربي لسمات العصور التاريخية يغفل تاريخ النبوات وأثرها في تاريخ البشرية، وينطلق من الواقع الأوربي مما يجعله غير صالح للتطبيق علىٰ تاريخ شعوب الشرق التي زخرت بالكثير من النبوات المتعاقبة والتي كان لها أكبر الأثر في تاريخ المنطقة وحضارتها، وكل فترة من هٰذه الفترات الرئيسة في تقسيم العصور توجد تقسيمات تاريخية لكل عصر بحسب التوزيع الجغرافي، أو سيادة الأسر والحكومات، أو بحسب الموقف من الرسالات السماوية، وهو مما ينبغي أن لايهمل وأن يؤخذ بعين الاعتبار، إذ النظر الشرعي يقتضي تقسيم تاريخ البشرية بحسب موقفهم من الرسل إلىٰ قسمين هما:

١ـ المؤمنون الذين استجابوا للرسل وأفردوا الله بالعبادة، وأخلصوا له التوحيد، وأقاموا حضارتهم ومدنيتهم علىٰ هٰذا المنهج، وهٰؤلاء لهم ولتاريخهم سمات وخصائص يجب ملاحظتها وأخذها في الاعتبار عند تقسيم العصور التاريخية.

٢ـ الكفار الذين كذبوا الرسل وأشركوا مع الله غيره، أو عبدوا غير الله أو جحدوا وجوده، فهٰؤلاء أقاموا تاريخهم وحضارتهم ومدنيتهم علىٰ المنهج الكفري ويشترك تاريخهم في سمات وخصائص نابعة من منهجهم ونظرتهم للكون والحياة.

والعصور القديمة عند المؤرخين المحدثين تبدأ من حوالي (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد وعند بعضهم قبل أربعة آلاف سنة،

وتنتهي بسنة: ٣٩٥م، وهو الوقت الذي انقسمت فيه الإمبراطورية الرومانية إلىٰ شرقية وغربية، وبعضهم يجعل سنة ٤٧٦م هي نهاية العصور القديمة وهٰذا التاريخ هو سنة سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية علىٰ أيدي البرابرة ودخول أوربا في العصور الوسطىٰ والتي تميَّزت بسيادة النصرانية المحرفة وعصر الأقطاع[1]، وهٰذا التحديد لنهاية العصور القديمة كما ترىٰ منظور فيه إلىٰ واقع التاريخ الأوربي.

والعصور القديمة عند العرب تشمل العرب البائدة، عاد وثمود وطسم وجديس وعمليق، كما تشمل الدول التي قامت في اليمن معين وسبأ وحمير، وعرفنا من نصوص الوحي أنَّ الله قد أرسل هود ـ عليه السلام ـ إلىٰ قوم عاد بالأحقاف، وأرسل صالحًا إلىٰ ثمود، وأرسل شعيب إلىٰ قومه وهم في شمال غربي الجزيرة العربية، وفي بلاد الرافدين، والشام، ومصر، قامت دول وحضارات متعاقبة، وأرسل الله رسلاً في هٰذه المناطق منهم إبراهيم عليه السلام في بلاد العراق ثم جاء إلىٰ الأرض المباركة فلسطين، ومنها إلىٰ مكة ووضع زوجه هاجر ومعها ابنه إسماعيل هناك، ثم بعد ذلك بنىٰ الكعبة هو وابنه إسماعيل بأمر الله، أما ابنه إسحاق فبعثه الله رسولاً في بلاد الشام وفلسطين، كما أرسل الله ابن أخي إبراهيم لوط إلىٰ ناحية من بلاد فلسطين وقد خسف الله بهم

---

(١) وتنتهي العصور الوسطىٰ بفتح المسلمين للقسطنطينية سنة: ١٤٥٣م حيث جاءتهم أنوار الإسلام فبدأت النهضة عندهم تدريجيًا، وبعض الباحثين يجعل بداية العصور الحديثة باختراع الطباعة سنة: ١٤٥٠م، والبعض الآخر يحددها باكتشافهم لأمريكا سنة: ١٤٩٢م، انظر: عبدالرَّحمن الشيخ، المدخل إلىٰ علم التاريخ ص(١٢٨).

الأرض لما كذبوا رسولهم.

واستمرت النبوة في ذرية إبراهيم ـ عليه السلام ـ من ولديه إسماعيل وإسحاق. ومن ذرية إسحاق يوسف بن يعقوب بمصر، وكذا موسىٰ عليه السلام، ثم تتابعت النبوات في بني إسرائيل «يعقوب» حتى كان آخرهم عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ وهو الذي ليس بينه وبين خاتم الرسل محمد بن عبدالله رسول، وقد بعث الله محمدًا ﷺ من أرض الحجاز وهو من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين ورسالته عامة لجميع الإنس والجن.

وكل هٰذا التاريخ إلىٰ بعثة النَّبي محمَّد ﷺ سنة «٦١٠ م تقريبًا» يدخل في اسم التاريخ القديم.

أما بعد بعثة النَّبي محمد ﷺ فتبدأ مرحلة جديدة حيث غيرت الرسالة المحمَّدية وجه الأرض في الواقع الجغرافي، والعمق العقدي، والبناء الحضاري، وأصبح عالم الإسلام هو محور التاريخ البشري، وتقسم العصور الإسلامية بحسب تاريخ الأسر الحاكمة إلىٰ:

١ـ تاريخ صدر الإسلام الذي يشمل عصر النبوة والخلافة الراشدة والدولة الأموية إلى سنة (١٣٢هـ)،

٢ ـ العصر العباسي من (١٣٢ـ ٦٥٦هـ) وهو بدوره له تقسيمات ومراحل.

٣ـ العصر المملوكي وقيام الخلافة في مصر إلىٰ سنة ٩٢٣هـ.

٤ـ العصر العثماني إلىٰ إلغاء الخلافة العثمانية سنة: ١٣٤٣هـ.

٥ـ العصر الحاضر، حيث وضعت الخرائط الجغرافية ورسمت فيها الحدود بين كل دولة وأخرى.

ومن الممكن وضع تقسيمات أخرىٰ حسب الأقاليم الجغرافية، أو حسب الامتداد والانحسار فيقال:

١ـ عصر التوسع والامتداد وهو عصر الفتوحات الكبرىٰ والتي انتهت بالعصر الأموي.

٢ ـ عصر البناء الحضاري والاتساق، ويشمل غالب العصر العباسي.

٣ـ عصر الركود والضعف.

٤ـ عصر النَّهضة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجري.

٥ـ العودة إلىٰ عصر الفتوحات في العصر العثماني الأول.

٦ـ عصر الانكسار والجمود.

٧ـ عصر الاستعمار.

٨ـ العصر الحاضر عصر التقسيم السياسي، والدول المستقلة ذات الحدود الجغرافية والوطنية المحلية.

وقد يكون التقسيم بحسب الزمن فيقال:

١ـ القرون المفضلة الثلاثة الأولىٰ.

٢ـ القرون الوسطىٰ الإسلامية.

٣ـ العصر الحديث.

ولا شكَّ أنَّ كل تقسيم له وجهته ولكل عصر ومرحلة سماتها، وهي تختلف علىٰ كل حال عن التقسيم السائد عند الأوربين لتاريخهم والذي يحاولون تعميمه علىٰ كل تواريخ الأمم الأخرىٰ بحكم هيمنتهم السياسية والفكرية وتفوقهم العسكري والتقني.

الدول والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي:

أساس الدول الإسلامية هي الدولة النبوية في المدينة والتي شملت الجزيرة العربية كلها، ومدتها عشر سنوات هجرية (١-١٠هـ) وبعد انتقاله ﷺ للرفيق الأعلى خلفه أبوبكر الصديق، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي - رضي الله عنهم أجمعين -، وهم الخلفاء الراشدون، ومدة دولتهم ثلاثون سنة من (١١-٤١هـ)، واتسعت الدولة في عهدهم من خراسان، ونهر سيحون شرقًا إلى بلاد إفريقية غربًا، ثم قامت الدولة الأموية وعاصمتها دمشق سنة ٤١هـ، واستمرت إلى عام (١٣٢هـ)، واتسعت الدولة في عهدهم حتى وصلت حدود الصين شرقًا، والأندلس غربًا، وتتميز هذه الدولة مع دولة الخلفاء الراشدين بالفتوحات الكبرى مع وحدة الدولة وقوة سلطان الخلفاء.

ثم جاءت الدولة العباسية التي أسقطت الدولة الأموية سنة (١٣٢هـ) ونقلت عاصمة الدولة إلى العراق، وقد مرت هذه الدولة بمراحل وعصور هي:

١- عصر القوة ونفوذ الخلفاء من (١٣٢ - ٢٣٢هـ) ويسمى العصر العباسي الأول.

٢- العصر العباسي الثاني من (٢٣٢ - ٤٤٧هـ) وابتدأ فيه ضعف الدولة ونفوذ بعض الأجناس المتسلطة على الخليفة، فكانت الفترة من (٢٣٢ - ٣٢٤هـ) سيطر فيها العسكر من قادة الأتراك، والذين استكثر منهم الخليفة المعتصم بالله (٢١٨ - ٢٢٧هـ) وهم أخواله فكان لهم بعد ذلك نفوذ وتسلط على الخلفاء.

ومن سنة (٣٢٤ ـ ٣٣٤هـ) استحدث نظام إمرة الأمراء الذين يديرون الدولة عن طريق التفويض من الخليفة حيث يقول الخليفة لأمير الأمراء: «وليتك وفوضت لك ما وراء بابي» فيتولى أمير الأمراء السلطة ولا يكون للخليفة سلطان خارج باب قصره.

ومن سنة (٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ) استولى بنو بويه الديالمة وقيل إنهم من الفرس على السلطة في الخلافة العباسية، وقد ساعد السلاطين البويهيين على نشر المذهب الشيعي وتأييده، وتسلطوا على الخلفاء العباسيين المنتسبين إلى السنة، مما أوجد آثارًا فكرية وفتنًا داخلية.

٣ـ العصر العباسي الثالث من سنة (٤٤٧ ـ ٦٥٦هـ) سيطر فيه السلاجقة على الخلافة العباسية، وكان عهدهم الأول عصر قوة، لكن أصابهم داء التفرق، فضعفوا وتشتتوا دولاً وإمارات متفرقة، وقد أُسقطت الخلافة العباسية على يد التتار سنة (٦٥٦هـ)، حيث دمروا بغداد، وعاثوا في الأرض الفساد، وزحفوا على بلاد الشام، حتى أوقفهم السلطان المظفر قطز محمود بن مودود في معركة عين جالوت يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة (٦٥٨هـ).

وانقطعت الخلافة ثلاث سنوات، وفي سنة (٦٥٩هـ) أقام المماليك بالقاهرة رجلاً من بني العباس، وبايعوه بالخلافة ليكتسبوا بهذا الشرعية في العالم الإسلامي، ولم يكن لهؤلاء الخلفاء نفوذ ولا سلطان، وقد استمرت دولة المماليك تحكم أغلب المنطقة العربية باسم الخلفاء العباسيين حتى سنة (٩٢٣هـ) حيث أسقطهم السلاطين العثمانيون، فانتقلت زعامة العالم الإسلامي بعد المماليك إلى السلاطين من بني عثمان، وتسموا باسم الخلافة إلى أن أسقطت الخلافة

العثمانية على يد أتاتورك سنة (١٣٤٣هـ) الموافق سنة (١٩٢٤م)، وأعلن الدولة التركية الحديثة على المبادىء العلمانية، وألغى العمل بالشريعة الإسلامية، وحول اللغة العثمانية من الأبجدية العربية إلى الأبجدية اللاتينية.

الدول المستقلة عن دولة الخلافة الإسلامية[1]:

منذ قيام الدولة العباسية سنة (١٣٢هـ) خرجت عنهم الأندلس حيث استقل بها عبدالرحمن الداخل الأُموي، وأقام بها الدولة الأموية سنة (١٣٨هـ)، والتي استمرت إلى سنة (٤٢٢هـ)، ثم تتابع استقلال بعض القادة أو الأسر المعارضة للعباسيين في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، بيانها كما يلي:

(أ) الدويلات في المشرق:

١ـ الدولة الطاهرية في خراسان من (٢٠٥ ـ ٢٥٩هـ).
٢ـ الدولة العلوية في طبرستان من (٢٥٠ ـ ٣١٦هـ).
٣ـ الدولة الصفارية في إيران من (٢٥٤ ـ ٢٩٦هـ).
٤ـ الدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر وإيران من (٢٦١ ـ ٣٨٩هـ).
٥ـ الدولة الغزنوية في أفغانستان والهند من (٣٥١ ـ ٥٨٢هـ).
٦ـ خانات التركستان في كاشغر من (٣٢٠ ـ ٦٠٩هـ).
٧ـ الإسماعيلية في الديلم من (٤٨٣ ـ ٦٥٤هـ).
٨ـ سلاجقة آسيا الصغرى من (٤٧٠ ـ ٧٠٨هـ).

(١) راجع: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، لزامباور، ترجمة زكي حسن، وحسن محمود.
ـ أطلس التاريخ الإسلامي، لحسين مؤنس.

٩ـ الدولة الخوارزمية من (٤٧٠ ـ ٦٢٨هـ).

١٠ـ الدولة الغورية في شمال الهند من (٥٨٢ ـ ٦١٨هـ).

١١ـ الدولة الإيلخانية في إيران من (٦٩٠ ـ ٧٨٥هـ).

١٢ـ الدولة التيمورية في إيران من (٨٠٧ ـ ٨٥٣هـ).

١٣ـ الدولة الصفوية في إيران من (٨٩٨ ـ ١١٤٨هـ).

١٤ـ الدولة الأفشارية في إيران من (١١٤٨ ـ ١١٦٢هـ).

١٥ـ الدولة القاجارية في إيران من (١١٦٢ ـ ١٣٤٤هـ).

١٦ـ الدولة البهلوية في إيران من (١٣٤٤ ـ ١٣٩٩هـ).

١٧ـ الجمهورية الإسلامية (الشيعية) في إيران من (١٣٩٩ الموافق ١٩٧٩م).

(ب) في جزيرة العرب:

١ـ بنو زياد في اليمن (شيعة) من (٢٠٤ ـ ٤٠٩هـ).

٢ـ بنو نجاح في زبيد (شيعة) من (٥١٢ ـ ٥٤٤هـ).

٣ـ بنو صليح في صنعاء (شيعة) من (٤٢٩ ـ ٥٩٢هـ).

٤ـ الأيوبيون في اليمن (سُنَّة) من (٥٦٩ ـ ٦٢٦هـ).

٥ـ بنو رسول في اليمن (سُنَّة) من (٦٢٦ ـ ٨٥٨هـ).

٦ـ الدولة الطاهرية (شيعة) في اليمن من (٨٥٥ ـ ٩٢٣هـ).

٧ـ بنو رس الزيود في صعده من (٢٨٠ ـ ٧٠٠هـ).

٨ـ الأئمة الزيدية في اليمن من (١٠٠٠ ـ ١٣٨٢هـ).

٩ـ الأئمة الإباضية في عمان من (١٣٥ ـ ٩٦٧هـ).

١٠ـ بنو نبهان في عمان من (٥٤٩ ـ ٨٠٩هـ).

١١ـ الأئمة من آل أبوسعيد في عمان من (١١٥٤ ـ إلي اليوم).

١٢ـ الدولة الأخيضرية في نجد من (٣٥١ ـ ٣٠٥هـ).

١٣ـ الأشراف الموسويون في الحجاز من (٣٥٠ ـ ٤٥٣هـ).
١٤ـ الأشراف السليمانيون في الحجاز من (٤٥٣ ـ ٤٦٠هـ).
١٥ـ الأشراف الهواشم في الحجاز من (٤٦٠ ـ ٥٩٨هـ).
١٦ـ الأشراف بنو قتادة في الحجاز من (٥٩٨ ـ ١٣٤٤هـ).
١٧ـ الدولة السعودية الأولى من (١١٥٨ ـ ١٢٣٣هـ).
١٨ـ الدولة السعودية الثانية من (١٢٤٠ ـ ١٣٠٧هـ).
١٩ـ الدولة السعودية الثالثة من (١٣١٩ ـ إلى الآن).

(ج) بلاد الشام والجزيرة الفراتية:

١ـ الحمدانيون من (٣١٧ ـ ٣٩٤هـ).
٢ـ بنو مرداس من (٤١٤ ـ ٤٧٢هـ).
٣ـ بنو عُقَيل من (٣٨٦ ـ ٤٨٩هـ).
٤ـ بنو مروان في ديار بكر من (٣٨٠ ـ ٤٨٩هـ).
٥ـ بنو زنكي من (٥٢١ ـ ٦٣١هـ).
٦ـ العثمانيون من (٦٩٩ ـ ١٣٣٧هـ) الموافق (١٩١٨م).
٧ـ الاستعمار الفرنسي من سنة (١٩١٨م)، حتى استقلال الدول بعد تقسيمها، الأردن سنة (١٩٤٦م)، لبنان سنة (١٩٤٦م)، وسورية سنة (١٩٤٦م)، والعراق سنة (١٩٣٢م)، أما فلسطين فقد وضعت تحت الانتداب البريطاني منذ سنة (١٩١٨م) حتى سنة (١٩٤٨م) حيث سلمتها لليهود، وأعلن قيام الدولة اليهودية على أرض فلسطين، نسأل الله أن يهيء تحرير المسجد الأقصى والأرض المباركة من دنس اليهود والمشركين.

(د) بلاد مصر والمغرب والأندلس:

١ـ الإمارة الأموية في الأندلس من (١٣٨ ـ ٣١٦هـ).

٢ـ الخلافة الأموية في الأندلس من (٣١٦ ـ ٤٢٢هـ).
٣ـ دول الطوائف في الأندلس من (٤٢٢ ـ ٤٨٤هـ).
٤ـ دولة المرابطين في الأندلس من (٤٨٤ ـ ٥٤١هـ).
٥ـ دولة الموحدين في الأندلس من (٥٤١ ـ ٦٣٢هـ).
٦ـ دولة بني نصر في غرناطة من (٦٣٥ ـ ٨٩٧هـ) الموافق (١٤٩٢م) وهي آخر معقل للمسلمين في الأندلس.
٧ـ دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى من (١٧٢ ـ ٣٦٤هـ).
٨ـ دولة الأغالبة في تونس من (١٨٤ ـ ٣٩٦هـ).
٩ـ الدولة الفاطمية (العبيديون) في إفريقية والمغرب من (٢٩٧ ـ ٣٦٢هـ).
١٠ـ دولة بني زيري في تونس من (٣٦٢ ـ ٥٤٣هـ).
١١ـ دولة بني حماد في الجزائر من (٣٩٨ ـ ٥٤٧هـ).
١٢ـ المرابطون في المغرب الكبير من (٤٤٨ ـ ٥٤١هـ).
١٣ـ الموحدون في المغرب الكبير من (٥٢٤ ـ ٦٦٨هـ).
١٤ـ بنو حفص في تونس من (٦٢٥ ـ ٩٨١هـ).
١٥ـ بنو زيان في الجزائر من (٦٣٧ ـ ٩٦٢هـ).
١٦ـ بنو مرين في المغرب الأقصى من (٥٩١ ـ ٩٥٧هـ).
١٧ـ الأشراف السعديون والفيلاليون في المغرب من (٩١٦ـ١٣٤٣هـ).
١٨ـ الجزائر تحت السلطة العثمانية من (٩٢٤ ـ ١٢٤٦هـ) الموافق (١٥١٨ ـ ١٨٣٠م).
١٩ـ الاستعمار الفرنسي للجزائر من (١٢٤٦ ـ ١٣٨٢هـ) الموافق (١٨٣٠ ـ ١٩٦٢م).

٢٠ـ تونس تحت السلطة العثمانية من (٩٨١ـ١٢٩٩هـ).

٢١ـ الاستعمار الفرنسي لتونس من (١٢٩٩ ـ ١٣٧٦هـ) الموافق (١٩٥٦م).

٢٢ـ ليبيا تحت السلطة العثمانية من (٩٥٨ـ١٣٣١هـ) الموافق (١٩١٢م).

٢٣ـ الاستعمار الإيطالي لليبيا من (١٣٣١ـ١٣٦٩هـ) الموافق (١٩٤٩م).

٢٤ـ الاستعمار الفرنسي والأسباني للمغرب من (١٣٣١ ـ ١٣٧٦هـ) الموافق (١٩٥٦م).

٢٥ـ الدولة الطولونية في مصر وسوريا من (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ).

٢٦ـ الدولة الأخشيدية في مصر وسوريا من (٣٢٣ـ٣٥٨هـ).

٢٧ـ الدولة الفاطمية (العبيدون) في مصر والشام من (٣٦٢ ـ ٥٦٧هـ).

٢٨ـ الدولة الأيوبية في مصر والشام من (٥٦٩ ـ٦٤٨هـ).

٢٩ـ المماليك البحرية (الأتراك) في مصر والشام من (٦٤٨ ـ ٧٩٢هـ).

٣٠ـ الدولة البرجية (الجراكسة) في مصر والشام من (٧٩٢ـ ٩٢٣هـ).

٣١ـ مصر ولاية عثمانية من (٩٢٣ ـ ١٢٢٠هـ).

٣٢ـ خديوية مصر (محمد علي باشا الأرناؤطي وذريته) من (١٢٢٠ ـ ١٣٧٣هـ) الموافق (١٨٠٥ ـ ١٩٥٢م).

وقد تعرضت مصر في هذه الفترة لحملة نابليون سنة (١٧٩٨م). والاستعمار البريطاني من عام (١٨٨٢م حتى ١٩٢٢م).

٣٣ـ قيام الثورية وإعلان الجمهورية في (٢٣/ ٧/ ١٩٥٢م).

الصفات الواجب توفرها في المؤرخ

الباحث في التاريخ لا بد أن تتوفر فيه مجموعة من الصفات حتىٰ يعتبر بقوله ورأيه وتقبل روايته ويكون من المتخصصين الثقاة في التاريخ وأهم الصفات هي:

١ـ العلم بالتاريخ والاطلاع علىٰ مصادره واكتساب المعرفة بتواريخ الأمم والشعوب، ومعرفة التعامل مع المصادر الأساسية للتاريخ، والرجوع إلىٰ المصادر الأصول ومعرفة مراتبها، وكيفية نقد الروايات والأسانيد، النقد الظاهري، نقد التحصيل والتصحيح وإثبات صحة إسناد الخبر، أو ضعفه، وكذا النقد الباطني للنص، نقد المتن، بالمقارنة وعدم التناقض مع الأصول المعتمدة الصحيحة.

٢ـ الأمانة العلمية وهي صفة مهمة في الباحث إذ هي سلوك أخلاقي وتثبت في القول والرأي، واحترام للعلم وأهله، وخوف من الله يمنعه من القول بلا علم، واستفراغ للجهد والطاقة في البحث، وترك الانتقاء الكيفي واتباع للأدلة الصحيحة، إذ يجعل الدليل هو الذي يقوده إلىٰ تقرير الحقيقة.

٣ـ معرفة طرائق أهل العلم في الاستدلال وترتيب المسائل العلمية، وهـٰذا من أهم الصفات التي يجب توفرها في المؤرخ.

وطرائق الاستدلال وترتيب المسائل هما روح المنهج العلمي بناحيتيه الموضوعية الفكرية والناحية الشكلية، فمن الأسس الموضوعية الفكرية للمنهج العلمي[١]:

---

(١) انظر: السلمي، منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص(١٣٩، ١٤١).

(أ) استعمال الدليل أو الوثيقة بعد التأكد من صحتهما.
(ب) حسن الاستدلال باتباع التنظيم والترتيب الملائم للأدلة مع حسن العرض وتحرير المسائل.
(ج) الإيمان بكل ما دلَّ عليه الكتاب والسنة، ومن ذلك الإيمان بالغيب والجزاء والحساب.
(د) الاعتماد على النصوص الشرعية والحقائق العلمية وتجنب الظنون والأوهام.
(هـ) التجرد من الهوى والالتزام بالعدل والحق.
(و) الالتزام بدلالة اللغة وقواعدها فلا يؤول اللفظ عن دلالته من غير قرينة صارفة له عن ظاهره.
(ز) حسن الأدب مع كلام الله ورسله واحترام أهل العلم والابتعاد عن التجريح الشخصي والاقتصار في النقد على بيان الخطأ.
(ح) عدم قبول المتناقضات وتقديم المبادىء على الرجال، وعدم التقليد والجمود، إذ أنَّ تبرئة الرجال لا تساوي تشويه المنهج[(١)].

والحق أحق أن يتبع، أو كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، ما ينقل عن المشائخ وهو مخالف للدين، إما كذب عليهم أو غلط منهم[(٢)].

أما الناحية الشكلية في إعداد البحث فتعني دقة الترتيب والتوثيق والهوامش والمراجع والتنصيص على الأقوال المقتبسة وصحة الطباعة وجمالها واستخدام البيانات والأشكال التوضيحية والخرائط وغيرها.

٤ـ القدرة على التمييز بين المقبول والمردود من الروايات،

---

(١) سيد، قطب، في ظلال القرآن (١/ ٥٣٣).
(٢) العبودية ص(١٣٠).

وذٰلك بمعرفة شروط من تقبل روايته من الرواة، ومعرفة مبادىء الجرح والتعديل.

يقول ابن تيمية: لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية يرد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل[١].

٥ـ العلم بأصول الأحكام الشرعية وبمقادير الناس وأحوالهم ومنازلهم وبمدلولات الألفاظ ومواقعها.

٦ـ حسن التصور للموضوع الذي يكتب فيه والإحاطة بما ورد من الأخبار والنصوص، وأن يبتعد عن التقليد للأخرين من غير دليل وحجة ويترك غرائب الآراء وشواذها، ولا يسعىٰ إلىٰ الشُّهرة والمخالفة بمثل تلك الغرائب.

٧ـ الضبط لما يقرأوه أو يراه ويسمعه.

٨ـ أن يكون جيد العبارة، عف اللسان عن المنكر من القول، وأن يستخدم المصطلحات العلمية المناسبة لكل عصر وكل قوم، فلا يأتي بمصطلحات مستوردة من ثقافة وملة أخرىٰ، فإنَّ هٰذا يسبب خلطًا وتشويشًا إذ كل مصطلح له بيئة لا يصلح لغيرها.

٩ـ التحري فيما يراه من الوقائع والأخبار التي كانت بين أعيان الصدر الأول من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لما أمرنا من الإمساك عما شجر بينهم، والدعاء والاستغفار لهم وحمل ما ثبت وقوعه منهم علىٰ الاجتهاد أو الخطأ المحض، وهٰذا هو الأسلم في الدين والأليق بمكانة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وعدم تعريضهم للقدح والمؤاخذة، ولهم من فضل الصحبة مع رسول الله ﷺ، والجهاد تحت رايته، والإنفاق في

(١) المنتقىٰ من منهاج الاعتدال ص (٣٢٠).

سبيل الله، والأعمال الصالحات الأخرىٰ، ما يكفر ذٰلك عنهم مع عفو الله ورحمته.

١٠ـ تحري العدل والانصاف وترك الانحياز والتشيع للآراء وأن يكون ذا نظر مستقل في الأدلة والنصوص.

مراحل الكتابة التاريخية:

لكتابة بحث أو موضوع تاريخي خطوات ومراحل ينبغي للمؤرخ أن يلاحظها ويتدرج فيها حتىٰ يستكمل بحثه العناصر الأساسية ويكون ذا صفة علمية.

ومراحل البحث التاريخي كما يلي:

١ـ اختيار موضوع البحث وتحديده تحديدًا دقيقًا من حيث المكان والزمان، وهٰذا الاختيار مبني علىٰ قراءة ومعرفة بالمصادر وإحاطة بحدود الموضوع.

٢ـ بعد اختيار الموضوع وتحديد عنوان البحث، يبدأ الباحث في تقسيم البحث إلىٰ فصول وكل فصل إلىٰ عدد من المباحث بحسب حاجة البحث، وقد يجعله في أبواب وكل باب في عدد من الفصول، والفصول تقسم إلىٰ مباحث، ويلاحظ أن تكون القسمة منطقية ومتدرجة تاريخيًا، وأن يكون هناك توازن بين الأبواب والفصول والمباحث بقدر المستطاع، وقد جرت العادة أن يكون للبحث مقدمة توضح أهمية البحث، والباعث علىٰ الكتابة أو أسباب اختيار الموضوع، ثم مصادر الموضوع ثم خطته والمنهج المتبع في الدراسة (منهج تاريخي تتبعي، منهج وصفي معياري، منهج تحليلي)، كما يذكر في المقدمة المشكلات التي واجهته في إعداد البحث وكيف تغلب عليها، ويختم

المقدمة بالشكر لمن كان له مساعدة في البحث.

وقد يحتاج البحث إلىٰ تمهيد، فيضع هٰذا المبحث، فإذا كان طويلاً جعله تحت عنوان: فصل تمهيدي، وإلاَّ جعله تحت عنوان: تمهيد، وليس كل بحث يحتاج إلىٰ تمهيد. كما أنَّ بعض الأبواب والفصول محتاج إلىٰ مدخل أو تمهيد، فيضع ذٰلك. كما أنَّ البحث محتاج إلىٰ خاتمة يذكر فيها نتائج البحث والمقترحات التي يرىٰ طرحها للباحثين في ذٰلك الموضوع، ولا بد أن يذيل البحث بقائمة بالمصادر والمراجع التي استفاد منها فعليًا، ويرتَّب المصادر والمراجع ترتيبًا هجائيًا حسب أسماء أو ألقاب المؤلفين المشتهرين بها، ويراعىٰ عند الترتيب اهمال أل التعريف، وأبو، وابن، ونحوها، وكذا مطلوب منه بعد الانتهاء من كتابة البحث في صورته النهائية وضع الفهارس التي يحتاج إليها البحث مثل: فهرس الموضوعات، فهرس الأعلام، فهرس الآيات والأحاديث، فهرس المصطلحات، فهرس الأبيات الشعرية، وهٰكذا.

وإذا احتاج إلىٰ وضع ملاحق للبحث وضعها تحت عنوان: الملاحق، وهٰذه الملاحق خاصة بنصوص الوثائق والرسوم والصور والخرائط التي تساعد علىٰ فهم الموضوع وتصوره والتي لا يناسب وضعها في أصل البحث وفصوله.

٣ـ بعد وضع الخطة من خلال الأبواب والفصول والمباحث، يبدأ الباحث في القراءة الموسعة حول موضوعه وفي مصادره الأساسية والمساعدة، وذٰلك لغرض جمع المادة العلمية ووضعها في بطاقات بحث حسب الفصول، وهٰذه المرحلة أطول المراحل وأهمها، حتىٰ

يستكمل جمع المادة.

٤ـ فحص المادة العلمية المجموعة ونقدها، والتأكد من صحة النصوص وصلاحية الاستفادة منها في موضوع البحث، وتسمىٰ هٰذه المرحلة في مناهج البحث التاريخي التفكيك والتحليل للنصوص لمعرفة ملاءمتها للموضوع وفائدتها له، وهي مرحلة مهمة وأساسية وبها يتميَّز الباحث الجاد من غيره، وتبرز القدرات النقدية للباحث وقوَّة شخصيته وتميزه العلمي.

٥ـ كتابة البحث وتحريره حسب خطته، وحسب المادة العلمية التي صلحت بعد النقد والتحليل، وهٰذه المرحلة تسمىٰ إعادة التركيب والصياغة، ويلاحظ في الكتابة حسن الصياغة، والترتيب المنطقي للأفكار، والتسلسل التاريخي للوقائع والحوادث، وكذا للآراء وذكر الأعلام، فإذا ذكر الأئمة الأربعة مثلاً: ذكرهم مرتبين حسب وفياتهم، أبوحنيفة ت: ١٥٠هـ، ومالك ت: ١٧٩هـ، والشافعي ت: ٢٠٤هـ، وأحمد ت: ٢٤١هـ، وإذا ذكر المؤرخين وأقوالهم رتَّب ذٰلك تاريخيًّا، فلا يقول مثلاً: ذكر ذٰلك الذَّهبي والطبري وابن الجوزي، وإنما يقول: ذكر ذٰلك الطبري، وابن الجوزي، والذَّهبي.

كما يلاحظ وضع علامات الترقيم التي تساعد علىٰ حسن استيعاب الموضوع عند القراءة، مثل الفاصلة، والنقطة، والاستفهام، والتعجب، وعلامة الجمل الاعتراضية، وبالنسبة للنصوص سواء كانت آيات قرآنية أو أحاديث نبوية، أو أقوال لأهل العلم فإنَّه يجب علىٰ الباحث وضعها بين علامات التنصيص الدالة علىٰ بداية النص ونهايته، ثم يوثق تلك النصوص بذكر رقم الآية واسم السورة، وذكر مصدر

الحديث النبوي من الكتب الأصول، وبالنسبة للأقوال من مصادرها الأصلية، ويذكر رقم الصفحة والجزء، ثم يذكر المعلومات اللازمة عن الكتاب في فهرس المصادر والمراجع، بذكر اسم المؤلف كاملاً وذكر اسم الكتاب كاملاً، وتاريخ طبعه ومكانه واسم الدار الناشرة له، وإذا كان نقله من الكتاب ليس نصًا وإنَّما يقتبس بعض الأفكار ويتصرف في النص فإنَّ الواجب أن يذكر في الهامش اسم المصدر أو المرجع ويقول: بتصرف.

ويجب على الباحث أن يرجع للأصول والمصادر الأصلية ولا يرجع للمصادر الثانوية والمتأخرة إلاَّ في حالة فقد المصدر وعدمه، أو بعد أن يذكر ما في المصدر الأصلي ويكون المرجع قد زاد تفصيلاً، أو حسن عرض، فيحيل القارىء إليه في هامش البحث.

وينبغي أن يهتم المؤرخ بعرض الحقائق التاريخية وإبرازها وأن لا يطغىٰ علىٰ بحثه الأسلوب القصصي أو الاستطراد حتىٰ تضيع الحقائق أو تختفي في ظل ذٰلك.

وأهم ما ينبغي أن يلاحظ الباحث في الكتابة الأمور التالية:

١ـ عرض الحقائق التاريخية بعد تمحيصها ونقدها مع محاولة الاستقراء في ذٰلك.

٢ـ أن يركز علىٰ الأهداف والغايات والفوائد التربوية ويستخدم أسلوب التحليل.

٣ـ أن يكون العرض موحيًا بتحبيب الخير للنَّاس من خلال الإشادة بالمواقف الصحيحة، ويكون موحيًا بتبغيض الشر من خلال التنبيه علىٰ المواقف الخاطئة.

٤ـ أن تكون التصورات العقدية والإيمانية هي المحور الأساسي في العرض.
٥ـ إبراز دور الأنبياء والقادة المصلحين وأثرهم في تاريخ البشرية.
٦ـ الابتعاد عن أسلوب التعميم.
٧ـ استعمال المصطلحات العلمية المناسبة والابتعاد عن المصطلحات الوافدة من ثقافات وأديان أخرىٰ.

أسئلة وتمرينات على الفصل الثاني

س١ : كيف كانت نشأة البشرية؟ وما هو دينها؟
س٢ : متى وقع الشرك في عبادة الله؟
س٣ : هل تعرف أبناء نوح الذين ترجع إليهم أصول السلالات البشرية؟
س٤ : ما هو المصدر الصحيح والمأمون في أخبار الأنبياء وأممهم؟
س٥ : ما هو الخطأ في تقسيم العصور التاريخية؟
س٦ : ما هو التقسيم المعتبر في النظر الشرعي؟
س٧ : هل تعرف تقسيمًا آخر للعصور التاريخية؟
س٨ : ما هو أساس الدول الإسلامية؟
س٩ : اذكر عصور تسلسل الخلافة حتى إلغاؤها في العصر الحديث؟
س١٠ : ما هي الدول التي قامت في المشرق؟
س١١ : هل تعرف الدول التي قامت في الجزيرة العربية؟
س١٢ : ما هي أبرز الدول في بلاد الشام؟
س١٣ : تتبع التسلسل التاريخي للدول الإسلامية في الأندلس من الفتح حتى سقوطها؟
س١٤ : ارسم خريطة لبلدان المغرب موضحًا عليها تداول السلطة حتى العصر الحاضر؟
س١٥ : اذكر أبرز الدول التي قامت في مصر منذ الفتح الإسلامي لها؟
س١٦ : هل تعرف الصفات الواجب توفرها في المؤرخ؟
س١٧ : ما هي طرائق أهل العلم في ترتيب المسائل العلمية؟
س١٨ : اكتب مقالة عن مراحل الكتابة التاريخية؟

الفصل الثالث

ضوابط علم التاريخ عند المسلمين

مقدمة عن فضل المسلمين في ميدان علم التاريخ وأثرهم فيه

لقد كان الغالب على العرب قبل البعثة النبوية «الأمية» أي شيوع الجهل بالقراءة والكتابة قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢].

وبسبب هٰذه الأمية كان التدوين للعلم عندهم قليلاً وإنما كان جل اعتمادهم علىٰ الذاكرة والحفظ وكان اهتمامهم التاريخي ينصب علىٰ جانبين هما:

١ـ أخبار الأيام والمنافرات.

٢ـ ذكر الأنساب والمفاخر والمثالب.

وكانوا يصوغون ذٰلك في نسق قصصي مشوق، أو ينظموه شعرًا ولذٰلك قيل: «الشعر ديوان العرب» وكانت نظرة عامتهم للحياة والتاريخ ضيقة وقصيرة لا تكاد تتعدىٰ المنطقة التي عاشوا فيها والقبائل التي تجاورهم.

ولما أن بعث الله محمدًا ﷺ بالكتاب المبين ودُون ذٰلك في الصحف، كان القرآن أوّل كتاب عرفه العرب مدونًا بلغتهم فاتَّسع أفقهم وتغيَّرت نظرتهم، وقد علموا من القرآن:

١ـ التصور الصحيح عن الله سبحانه وتعالىٰ وربوبيته للخلق أجمعين وإلاهيته لهم.

٢ـ وحدة أصل البشرية ونشأتها الأولىٰ قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ

ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ﴿١﴾ [النساء: ١].

٣ـ الدين الذي ارتضاه الله للبشرية وأنَّ الأنبياء كلهم بعثوا بالتوحيد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

٤ـ وعرفوا منه المصير والنهاية التي ينتهون إليها، وأنَّ ذٰلك المصير هو بحسب الأعمال في الحياة الدنيا.

٥ـ كما علموا سنن التقدم، وقيام الحضارات والدول، وأسباب انهيارها وسقوطها.

لقد كان لكل هٰذا أثره في تصورهم واهتمامهم مما أعطاهم بُعدًا زمنيًا في النَّظر إلىٰ الماضي، قوامه التاريخ البشري كله، في ماضيه وحاضره بل وحتىٰ مستقبله، وبُعدًا مكانيًا قوامه الأرض كلها، بل الكون بما فيه من أرض وسماء وما فيه من عوالم ومخلوقات، فكان هٰذا التصور والمعرفة الجديدة دافعًا للمشاركة في كافة ميادين العلم والحضارة، ومن ذٰلك علم التاريخ حيث وقع الاهتمام به من ناحية التدوين والتأليف، ومن ناحية التثبت من رواياته، ورواته، واستخدام ذٰلك في مجال التربية والتأسي والاعتبار، وقد تنوع الاهتمام بالتاريخ واتَّسع نطاقه حتىٰ شمل أكثر من أربعين نوعًا[(١)]، وابتكر المسلمون فروعًا من علم التاريخ لم يسبقوا إليها مثل: علم الجرح والتعديل، وعلم الطبقات.

---

(١) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ ص(٨٦).

العناية بالسيرة:

وكانت سيرة النَّبي ﷺ والعناية بها من أقدم أنواع التأليف التاريخي ظهورًا، حيث كانت العناية بها مقترنة بالعناية بالسنة والحديث النبوي وتدوينه، فقد اهتم بها جيل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ثم جيل التابعين، ولهم مدونات وكتب منسوبة لهم، منهم عروة بن الزبير (ت: ٩٣هـ) وابن شهاب الزهري (ت: ١٢٤هـ) وموسىٰ بن عقبة (ت: ١٤١هـ) وعامر الشعبي (ت: ١٥٣هـ) ومن أقدم المؤلفات في السيرة التي وصلت إلينا: كتاب السيرة النَّبوية لمحمَّد بن إسحاق (ت: ١٥١هـ) بتهذيب ابن هشام(ت: ٢١٨هـ) وابن إسحاق هو إمام أهل المغازي ومقدمهم، ولهٰذا قال الزهري لما سئل عن مغازيه: هٰذا أعلم النَّاس بها[1]، وكتاب مغازي الواقدي (ت: ٢٠٧هـ) والطبقات الكبرىٰ لابن سعد(ت: ٢٣٠هـ) وجوامع السيرة لابن حزم(ت: ٤٥٦هـ) ودلائل النبوة للبيهقي (ت: ٤٥٨هـ) والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبدالبر(ت: ٤٦٣هـ) وعيون الأثر في فنون المغازي والسير لابن سيد الناس اليعمري(ت: ٧٣٤هـ) وابن كثير في البداية والنهاية(ت: ٧٧٤هـ) وسبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد لمحمَّد بن يوسف الصالحي الشامي(ت: ٩٤٢هـ) وهو من أوسع كتب السيرة النبويه.

العناية بالتراجم:

كما أنَّ تراجم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ورواة الحديث النبوي قد نالت اهتمامًا كبيرًا من علماء الإسلام ومؤرخيه، وممن ألف في

---

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٦).

ذلك: محمَّد بن سعد (ت: ٢٣٠هـ) في كتاب الطبقات الكبرىٰ، وخليفة بن خياط (ت: ٢٤٠هـ) في كتاب الطبقات، والإمام البخاري (ت: ٢٥٦هـ) في كتاب التاريخ الكبير، ويعقوب بن سفيان الفسوي (ت: ٢٧٧هـ) في كتاب المعرفة والتاريخ، وممن أفرد تراجم الصحابة ابن عبدالبر (ت: ٤٦٣هـ) في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب، وابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ) في أسد الغابة في معرفة الصحابة، وابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) في الإصابة في معرفة الصحابة.

وقد اتَّسعت الكتابة في التراجم فهناك كتب في الجرح والتعديل وأخرىٰ في طبقات الفقهاء، وطبقات الأطباء، والشعراء، والأعلام عامة مثل: «الوفيات» لابن خلكان، وتاريخ الوزراء، والكتاب، وطبقات الحفاظ، وطبقات المفسرين، ومن أجود كتب التراجم العامة كتاب: «سير أعلام النبلاء» للذَّهبي وهو مطبوع في خمسة وعشرين مجلدًا مع الفهارس.

كتب الفتوح والجهاد والنظم:

كما شمل التأليف التاريخي فتوح البلدان مثل: كتاب «الفتوح الكبير» لسيف بن عمر التميمي (ت: ١٨٠هـ تقريبًا) وهو مفقود، وكتاب «فتوح الشام» لأبي إسماعيل محمَّد بن عبدالله الأزدي (القرن الثاني) و«فتوح مصر وأفريقية» لابن عبدالحكم (ت: ٢٥٧هـ) و«فتوح البلدان» لأحمد بن يحيىٰ البلاذري (ت: ٢٧٩هـ) كما صنَّف أهل العلم في الأموال والخراج وكيفية جبايته مثل: كتاب «الخراج» للقاضي أبي يوسف (ت: ١٨٢هـ) و«الخراج» ليحيىٰ بن آدم القرشي (ت: ٢٠٣هـ) و «الأموال» لأبي عبيد القاسم بن سلَّام (ت: ٢٢٤هـ) و«الأموال» لحميد

ابن زنجويه (ت: ٢٥١هـ).

أنواع أخرى:

ومن الأنواع التي شملها التأليف التاريخي: الأنساب والقبائل، ومن أهم كتب الأنساب: «كتاب النسب الكبير» لهشام الكلبي (ت: ٢٠٦هـ) وكتاب «نسب قريش» لمصعب الزبيري (ت: ٢٣٦هـ) وكتاب «المحبَّر» لابن حبيب (ت: ٢٤٥هـ) وله كتاب المنمَّق، وكتاب مختلف القبائل ومؤتلفها، وكتاب: «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم (ت: ٤٥٦هـ) وكتاب: «الإيناس بعلم الأنساب» للوزير ابن المظفر أبي القاسم الحسين بن علي (ت: ٤١٨هـ) وكتاب «الأنساب» للسمعاني (ت: ٥٦٢هـ) وكتاب «اللباب في تهذيب الأنساب» لابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ) وكتاب «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» للقلقشندي (ت: ٨٢١هـ).

كما شمل التأليف تواريخ المدن الإسلامية مثل: أخبار مكة للأزرقي (ت: بعد ٢٤٤هـ) وأخبار مكة، للفاكهي (ت: ٢٧٢هـ) وأخبار المدينة لابن شبة (ت: ٢٦٢هـ) وتاريخ واسط، لأسلم بن سهل الواسطي (ت: ٢٨٨هـ) وتاريخ أصبهان لابن منده (ت: ٣٠١هـ) وتاريخ نيسابور لأبي عبدالله الحاكم (ت: ٤٠٥هـ) وتاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٥٧١هـ).

كما أنَّ بعض المؤرخين قد كتبوا تواريخ عامة بعضها مرتب علىٰ الدول والحوادث، وبعضها مرتب على السنين الهجرية، ومن هٰذه التواريخ: كتاب التاريخ لخليفة بن خياط (ت: ٢٤٠هـ) وكتاب الأخبار الطوال للدينوري (ت: ٢٨٢هـ)، وتاريخ اليعقوبي (ت: ٢٨٤هـ) وهو شيعي غالٍ في التشيع، وتاريخ الإمام الطبري (ت: ٣١٠هـ) ومروج

الذهب للمسعودي (ت: ٣٤٦هـ) وهو شيعي المذهب، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) والكامل في التاريخ لابن الأثير (٦٣٠هـ) وتاريخ الإسلام، ودول الإسلام، كلاهما للذَّهبي (ت: ٧٤٨هـ)، والبداية والنهاية لابن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، وتاريخ الخلفاء للسيوطي (ت: ٩١١هـ).

من هٰذا العرض يتَّضح فضل العلماء المسلمين في ميدان علم التاريخ وسعة النظرة التاريخية لديهم، وأنَّها لم تقتصر علىٰ جانب الدول والحكام والحروب، وإنما شمل التأليف المجتمع بكافة اتجاهاته وأنشطته الفكرية والعلمية فكما دونت أخبار الفتوح، وتواريخ الخلفاء، دون تاريخ العلم والعلماء، وطبقات الصحابة والمحدثين، والقضاة، والحفاظ، والفقهاء، والشعراء، والأدباء، والكتاب، والوزراء، وأخبار الرحلات في طلب العلم والرحلات التجارية، والسياحية، والجغرافية، وتواريخ الفرق والمذاهب والملل، بل وحتىٰ الحكم والنوادر، والفكاهات والطرائف، والأخبار الجامعة نالت نصيبها من التدوين والتأليف.

ضوابط دراسة علم التاريخ عند المسلمين

لدارسة التاريخ وكتابته ضوابط علمية تلحظ من خلال عمل المؤرخين المسلمين وطريقتهم في التأليف، ومن هٰذه الضوابط:

١ـ نقد الروايات سندًا:

لقد كان المنهج سلكه غالب المؤرخين المسلمين الأوائل هو تدوين الأخبار، والأحداث التاريخية مسندة إلىٰ رواتها علىٰ طريقة المحدثين، وهٰذه الطريقة تيسر علىٰ الباحثين نقد النصوص وتصحيحها، ومعرفة صحة الوثائق، وذٰلك بنقد الإسناد، حيث يشترط في الإسناد: أن يكون متَّصلاً، وأن يتوفر العدالة والقبول في كل راوٍ من طبقات السند حتىٰ يصلح ما يُروىٰ بهٰذا الإسناد للاحتجاج به والاعتماد عليه(١)، ونظرًا لكون الأخبار التاريخية يتساهل في نقلها بخلاف الحديث النبوي الذي تبنىٰ عليه الأحكام الفقهية، فقد تساهل أهل العلم في رجال الأسانيد، وفي اشتراط اتصال السند، فنجد في بعض أسانيد الكتب التاريخية، الرواية عمن خفَّ ضبطه، أو كان مستور الحال غير معلوم العدالة عند علماء الجرح والتعديل، بل وحتىٰ من اتُّهم بكذب أو بدعة، وكذا الأسانيد نجد فيها المرسل، وفيها المنقطع، وفيها المعلق، إلىٰ غير ذٰلك من عيوب الإسناد(٢).

---

(١) انظر: مقدمة ابن الصلاح ص(١٠)، والتقييد والإيضاح ص(٢٠).

(٢) عن تعريف المرسل والمنقطع والمعلق، راجع الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث لابن كثير.

وإليك بعض الأمثلة:

أ- قال ابن إسحاق: حدَّثني بعض أهل العلم عمن حدثه، عن محمَّد بن طلحة، عن عثمان بن عبدالرَّحمن، قال: أصاب رسول الله ﷺ في غزوة محارب وبني ثعلبة عبدًا يقال له يسار، فجعله رسول الله ﷺ في لقاح له كانت ترعىٰ في ناحية الجماء، فقدم علىٰ رسول الله نفر من قيس كبَّة[(١)] من بجيلة، فأستوبئوا وطحلوا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «لو خرجتم إلىٰ اللقاح فشربتم من ألبانها وأبوالها» فخرجوا إليها فلما صَحّوا وانطوت بطونهم، عدو علىٰ راعي رسول الله ﷺ يسار، فذبحوه وغرزو الشوك في عينيه، واستاقوا اللقاح، فبعث رسول الله ﷺ في آثارهم كرز بن جابر، فلحقهم فأتىٰ بهم رسول الله ﷺ مرجعه من غزوة ذي قَرَد، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم. [السيرة النبوية ٢/ ٦٤].

فسند هٰذا النص فيه من لم يُسم وهو شيخ ابن إسحاق، وكذا شيخ شيخه، كما أنَّه ظاهر الإرسال، إذ أنَّ عثمان بن عبدالرَّحمن بن عثمان التيمي لم يدرك القصة، فقد ذكر ابن حجر في الإصابة، أنَّ والده من مسلمة الفتح[(٢)]، أما هو فله رؤية[(٣)]، إذ كان صغيرًا عام فتح مكة، وهٰذه الحادثة في السنة السادسة من الهجرة فلا يُحتج بمثل هٰذا السند، ولكن أصل القصة ورد عند البخاري ومسلم[(٤)] وغيرهما من طرق أخرىٰ فهي صحيحة لأجل ذٰلك.

---

(١) كُبَّة: فرع من قبيلة بجيلة.

(٢) هم أهل مكة الذين أسلموا بعد فتحها.

(٣) أي للنّبي عليه السلام ولكن بسبب صغر سنه لم يرو عنه مباشرة.

(٤) صحيح البخاري(١/ ٦٤)، ومسلم(٣/ ١٢٩٦) حديث رقم: (١٦٧).

ب ـ قال الطبري: حدَّثني عمر، قال: حدَّثني أبوالحسن، قال: حدَّثنا أبو مخنف، عن جابر، عن الشَّعبي، عن أبي الطفيل، قال: قال عليٌّ: يأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل، ورجل، فقعدت علىٰ نجفة ذي قار، فأحصيتهم فما زادوا رجلاً ولا نقصوا رجلاً [تاريخ الطبري ٤/ ٥٠٠].

فهٰذا السند ساقط لا يحتج به، فيه أبومخنف لوط بن يحيىٰ الأزدي شيعي كذاب، وجابر هو الجعفي شيعي غالٍ في التشيع[1] والمتن منكر.

ج ـ قال الطبري: كتب إليَّ السَّري، عن شعيب، عن سيف، عن محمَّد وطلحة، قالا: علم أهل المدينة بيوم الجمل يوم الخميس قبل أن تغرب الشمس، من نَسرٍ مرَّ بما حول المدينة، معه شيء متعلقة، فتأمله الناس فوقع، فإذا كفٌّ فيها خاتم، نقْشُه «عبدالرَّحمن بن عتاب» وجعل مَنْ بين مكة والمدينة من أهل البصرة من قَرُب من البصرة أو بَعُد، وقد علموا بالوقعة مما ينقل إليهم النسور من الأيدي والأقدام [تاريخ الطبري: ٤/٥٤٤]

وهٰذا الإسناد ضعيف جدًا، فشعيب بن إبراهيم راوية كتب سيف، ومحمَّد بن عبدالله، وطلحة بن الأعلم، من المجاهيل، وسيف ابن عمر التميمي مجروح عند المحدثين، ولكن وجود السند في هٰذه النصوص يسر لنا نقدها عن طريق الإسناد، إضافة إلىٰ نقد المتون كما سيأتي. ويقابل نقد الإسناد ودراسته في مناهج البحث التاريخي المعاصرة «نقد المصادر» و«تصحيح الوثائق» أو النقد الخارجي للنص علىٰ تفاوت في المنهجين.

---

(١) راجع ترجمة لوط بن يحيىٰ، وجابر الجعفي، في ميزان الاعتدال للذَّهبي (٣/٤١٩)، (١/٣٧٩) علىٰ التوالي.

٢ـ نقد الروايات متنًا:

«السند» هو سلسلة الرواة الذين يتقدمون النص ويرويه بعضهم عن بعض إلىٰ منتهاه، «والمتن» هو ذٰلك النص المروي بالسند، وقد يكون النص بدون سند، فإذا كان السند ضعيفًا يكون المتن ضعيفًا ما لم يُرو من طريق أخرىٰ صحيحة، أو حسنة، أو ضعيفة تشهد للنص، فيتقوىٰ بها، وإذا كان السند صحيحًا أو حسنًا فالغالب أنَّ المتن أو النص يكون صحيحًا إذا سلم من الشذوذ أو العِلَّة القادحة أو النكارة في ألفاظه.

وقد اعتنىٰ العلماء المسلمون بنقد المتون ولم يقبلوها بمجرَّد صحة الإسناد، ووضعوا مقاييس علمية لنقد المتون. وهٰذا العمل يسمىٰ في مناهج البحث التاريخي المعاصرة «النقد الباطني السلبي» فكتاب التميز، للإمام مسلم هو في نقد متون الأحاديث، فقد ساق الأحاديث المنقولة علىٰ الوهم في متونها دون أسانيدها وذٰلك بإيراد الأحاديث المخالفة لها في المتن[1].

وكذلك ابن الجوزي (٥١٠ـ ٥٩٧هـ) في كتابه الموضوعات، كان نقده لكثير من الأحاديث التي حكم بوضعها يوجه إلىٰ متونها[2]، كما نجد عَلَمًا بارزًا هو الإمام ابن القيم (ت: ٧٥١هـ) قد وضع مقاييس دقيقة في نقد المتون، وذٰلك في كتاب: المنار المنيف في الصحيح والضعيف. ووضع بعض الضوابط التي يحكم بها بوضع الحديث دون الرجوع إلىٰ إسناده، مثل: اشتمال المتن علىٰ مجازفات، أو مخالفته للحس، أو سماجة المعنىٰ وركاكة الأسلوب، والمناقضة للسنة

---

(١) التميز ص(١٩٠، ١٩٧، ٢٠٢، ٢٠٦) وغيرها.

(٢) انظر: مسفر الدميني، مقايس ابن الجوزي في نقد متون السنة.

الصحيحة أو لصريح القرآن(١).

وإليك بعض الأمثلة:

أ ـ قال الإمام مسلم: «حدَّثني الحسن الحلواني، وعبدالله بن عبدالرَّحمن الدارمي، قالا: ثنا عبيدالله بن عبدالمجيد، ثنا كثير بن زيد، حدَّثني يزيد بن أبي زياد، عن كريب، عن ابن عباس، قال: بِت عند خالتي ميمونة فاضطجع رسول الله ﷺ في طول الوسادة، واضطجعتُ في عرضها فقام رسول الله ﷺ فتوضأ ونحن نيام، ثم قام فصلىٰ، فقمتُ عن يمينه فجعلني عن يساره، فلما صلَّىٰ قلتُ: يا رسول الله. . .» سمعتُ مسلمًا يقول: وهٰذا خبر غلط غير محفوظ لتتابع الأخبار الصحاح برواية الثقات علىٰ خلاف ذٰلك، أنَّ ابن عباس إنما قام عن يسار رسول الله ﷺ فحوَّله حتىٰ أقامه عن يمينه، وذٰلك سنة رسول الله ﷺ في سائر الأخبار عن ابن عباس أنَّ الواحد مع الإمام يقوم عن يمين الإمام [التمييز للإمام مسلم ص١٨٣ـ١٨٤]

ب ـ ذكر الطبري في تاريخه ٣/٢١٨ رواية طويلة عن هشام بن محمَّد بن السائب الكلبي عن أبي مخنف قال: . . .وذكر فيها: «أنَّ علي بن أبي طالب كان دائبًا في جهاز رسول الله ﷺ، ونسب إلىٰ أبي بكر أنَّه خاطب الأنصار بقوله: وفيكم جُلَّة أزواجه، وذكر مخاصمة حادَّة بين عمر والحباب بن المنذر وتهديد الحباب بإجلاء المهاجرين من المدينة، وأنَّ الأوس لم تسارع لبيعة أبي بكر إلاَّ خوفًا من أن يليها الخزرج، وهٰذه كلها ألفاظ منكرة، ورحم الله شعبة بن الحجاج إذ

---

(١) المنار المنيف (ص: ٥٠، ٨٠)، وانظر مزيدًا من ذٰلك في كتاب مقاييس نقد متون السنة: للدكتور: مسفر الدميني.

يقول: لا يجيئك الحديث الشاذ إلاَّ من الرجل الشاذ[(١)].

والروايات الصحيحة تؤكد أنَّ جهاز النَّبي ﷺ لم يبدأ فيه إلاَّ يوم الثلاثاء، والسقيفة كانت يوم الاثنين، وتؤكد أنَّ عليًا قد لزم بيته من هول المصيبة، ومن المعلوم أنَّ أزواج رسول الله ﷺ لم يكن منهنَّ أنصارية واحدة فضلاً أن يكن جُلَّ أزواجه، وكذٰلك ادعاؤه الخصام الحاد والتهديد بالطرد للمهاجرين، يرده قول الله تعالىٰ في وصف الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩].

فكيف يتَّفق الإيثار في هٰذه الآية مع الأثرة التي تؤكدها الرواية؟ وكيف يجمع بين المحبة والأخوة وبين البغض والعداوة[(٢)].

٣ـ معرفة مراتب المصادر:

لكل علم مصادر أصلية دوَّنها أهل ذٰلك العلم، وفق طرق علمية محددة، وترتيب واضح، ولهٰذه المصادر مراتب في التوثيق وفق شروط معلومة في المؤلف، وفيما يكتب.

وهٰذه المراتب هي:

(أ) إما بحسب الثقة في المصدر، وحسب المنهج الذي سلكه مؤلفه في تدوين معلوماته، مثل: أن يكون المؤلف ثقة وإمامًا مشهورًا، وفي المنهج يشترط الصحة، ولا يروي عن الضعفاء والمجاهيل، ولا

---

(١) الخطيب البغدادي، الكفاية، في علم الرواية ص(٢٢٤).

(٢) راجع يحيىٰ بن إبراهيم اليحيىٰ، مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري ص(١٢٢، ١٢٥).

يتَّبع غرائب الروايات وشواذها.

(ب) أو بحسب القرب من الحادثة، فرواية المعاصر للحدث أو المشاهد له أقرب إلىٰ الصواب وأولىٰ من رواية المتأخر.

(ج) أو بحسب التخصص والاهتمام، فالذي يهتم بالأخبار والمغازي (مثلاً) تعتبر رواياته نظرًا لاهتمامه وتخصصه بهٰذا النوع من المعرفة وإن كان أقل درجة في التوثيق، ومن الأمثلة محمَّد بن إسحاق قال فيه الشافعي: من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال علىٰ محمَّد بن إسحاق[(١)] مع أنَّه عند علماء الجرح والتعديل: مدلس لا يقبل حديثه إلاَّ إذا صرَّح بالتحديث[(٢)]، ومحمَّد بن عمر الواقدي، متروك عند المحدثين[(٣)]، ولكنه لا يُستغني عنه في المغازي، وأيام الصحابة وأخبارهم[(٤)] وسيف بن عمر الضبي قال عنه الحافظ ابن حجر: ضعيف الحديث، عُمدة في التاريخ.[(٥)] فهٰذه الأقوال من النقاد قد روعىٰ فيها النَّظر إلىٰ التخصص والاهتمام. وهٰذه المراتب متفاوتة ولا بد من ملاحظتها عند الرجوع إلىٰ المصادر، فمثلاً صحيحا البخاري ومسلم هما في أعلىٰ درجات التوثيق وصاحباهما إمامان عدلان، والمنهج الذي اتبعاه في تدوين كتابيهما أعلىٰ المناهج في التوثيق ولذٰلك ما فيهما لا يعارض بما عند الواقدي، أو ابن سعد، أو الطبري، فضلا عن

---

(١) الذَّهبي، سيرأعلام النبلاء(٧/٣٦).
(٢) ابن حجر، تقريب التهذيب ص(٤٦٧).
(٣) المصدر السابق ص(٤٩٨).
(٤) الذَّهبي سير أعلام النبلاء(٩/٤٥٤).
(٥) التقريب ص(٢٦٢).

أصحاب الأهواء المنحرفة مثل اليعقوبي، والمسعودي، والأصفهاني صاحب الأغاني، وابن أبي الحديد صاحب شرح نهج البلاغة، أو كتب الأدب والأخبار التي لم يسلك مؤلفوها منهجًا علميًا في النَّقد والتوثيق.

وإذا صحَّ إسناد خبرين وهما متعارضان ولا يمكن الجمع بينهما فيلجأ إلىٰ الترجيح، والمرجحات كثيرة، ومنها ما ورد في المرتبتين الثانية والثالثة.

٤ـ ملاحظة السنن الربانية والسنن الاجتماعية:

من ضوابط دراسة التاريخ الإسلامي، أن يلاحظ الدارس السنن الربانية المترتبة علىٰ الاستجابة للأوامر والنواهي الشرعية أو عدمها، وقد مضىٰ في درس السنن الربانية نماذج من ذٰلك، ورأينا كيف كانت مصائر الأقوام الذين أعرضوا عن شرع الله، ولم يستجيبوا لذٰلك، وكانت العاقبة للمتَّقين الذين استجابوا لله وللرسول واتَّبعوا ما أنزل إليهم من ربهم، كما يجب ملاحظة السنن الاجتماعية في تقدم الأمم ورقيها أو انحطاطها، وأنَّ الله لا يغير ما بقومٍ حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم، فإذا وقعت إرادة التغيير الدافعة للعمل في مجتمع من المجتمعات يحصل التغيير، سواء بالارتفاع والتقدم أم بالهبوط والتأخر، ومقياس الرقي أو الانحطاط، هو بحسب المنهج الإلـٰهي لا المقياس المادي.

ومن المعلوم أنَّ الدول والمجتمعات لها أعمار تشب فيها حتىٰ تكتمل، ثم تشيب وتهرم حتىٰ تتلاشىٰ إن لم تصبها يدالتجديد والاصلاح، فيعود لها الشباب والحركة من جديد، وقد قال ﷺ: «**إنَّ الله يبعث لهـٰذه الأمة علىٰ رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»(١).

---

(١) رواه أبوداود في السنن (٤/١٠٩)، والحاكم في المستدرك(٤/٥٢٢)، وانظر =

٥ ـ معرفة مناهج المؤلفين وطرائقهم في التأليف:

إنَّ من ضوابط الدراسة التاريخية، معرفة المؤرخ والدارس لمناهج المؤلفين التي سلكوها في تأليف كتبهم، ومعرفة اتجاهاتهم الفكرية، فليس كل مؤلِّف اشترط أن لا يخرج في كتابه إلاَّ خبرًا صحيحًا، والذين اشترطوا يتفاوتون بحسب مصادرهم وشروطهم، ولا يُسلَّم لهم إلاَّ بعد السبر والاختبار، ومن المعلوم أنَّ التدوين التاريخي قد مرَّ بمراحل حتىٰ استقرَّت مناهجه، فمرحلة الجمع والتقميش[1] مرحلة سابقة علىٰ مرحلة التفتيش والتصحيح.

فبعض الكتب مدوَّنة علىٰ طريقة الجمع دون التصحيح، وإن كان مؤلفوها قد اختاروا وانتخبوا، وتركوا أشياء مما وصل إليهم لم يرضوا بها.

وبعض الكتب جمعت بين الطريقتين، فنبهت علىٰ ضعف بعض الأخبار، وتركت الأخرىٰ اكتفاء بذكر رواتها، وهـٰذا منهج معلوم عند أهل العلم، قال تقي الدين الفاسي: (في ترجمة المحب الطبري من كتابه العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين) وله تواليف حسنة في فنون من العلم إلاَّ أنَّه وقع له في بعض كتبه الحديثية شيء لا يستحسن، وهو أنَّه ضمَّنها أحاديث ضعيفة، وموضوعة في فضائل الأعمال وفضائل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من غير تنبيه علىٰ ذٰلك، ولا ذَكَر إسنادها لِيُعْلَمَ منه حالها[2]. فالمنهج عندهم إما أن يشترط الصحة، أو يوضح

= سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم: (٥٩٩).

(١) التقميش: جمع الشيء من هاهنا وهاهنا، اللسان(٦/ ٣٨٦).

(٢) (٣/ ٦٢).

الحكم على الخبر، أو يذكر السند على الأقل، فمثلاً السيرة النبوية لابن هشام، وطبقات ابن سعد، وتاريخ خليفة، وتاريخ الإمام الطبري، هي من الكتب التي اتخذت أسلوب الجمع والانتخاب دون التصحيح إلاّ ما ندر، ولكنها ذكرت الأسانيد، أما الذّهبي وابن كثير وابن حجر، فقد جمعوا بين الطريقتين، وهناك كتب لم تذكر الأسانيد مثل: تاريخ اليعقوبي، والأخبار الطوال للدينوري، ومروج الذّهب للمسعودي.

فمعرفة الدارس لهٰذه المناهج والطرائق تيسر له طريق الاستفادة من هٰذه الكتب ونقد ما بها من نصوص، ولذا فإنَّ وجود الخبر في تاريخ الطبري مثلا، أو تاريخ ابن شبَّة، أو طبقات ابن سعد، لا يكفي للاستدلال به قبل أن تعرف صحته، وأقل شيء، أن تذكر سند الرواية مثل أن تقول: أخرجه الطبري في تاريخه من رواية سيف، ثم تذكر الإسناد، وأخرجه من رواية هشام الكلبي. . . وهٰكذا.

وإليك بعض النماذج من مناهج المؤلفين في التاريخ من الماضين والمعاصرين:

والمؤرخون المذكورون أدناه يمثلون اتجاهات فكرية متعددة: فالإمام الطبري، والحافظ ابن كثير، يمثلان الأصالة السُّنية السلفية، ويلحق بهما الأستاذ الشيخ محمَّد صادق عرجون، أما المسعودي، فالاتجاه الشيعي ظاهر عليه وإن كان لا يمثل الاتجاه الشيعي بكل جوانبه، أما طٰه حسين، وفيليب حتِّي، فيمثلان في دراسة التاريخ، الاتجاه الاستشراقي بفرعية: النصراني والعلماني.

أولاً: اتجاه الأصالة:

١ ـ الإمام الطبري: (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ)

هو الإمام المجتهد الثبت، أبوجعفرمحمَّد بن جرير بن يزيد بن

كثير الأملي الطبري البغدادي، ولد سنة: ٢٢٤هـ، وحفظ القرآن وهو صغير، ثم رحل في طلب العلم فطاف الأقطار الإسلامية، ولقي الشيوخ وأخذ عنهم، واستقرَّ في بغداد وصنَّف الكثير من الكتب في الحديث والتفسير والفقه والتاريخ، وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة: ٣١٠هـ.

وكتابه: تاريخ الرسل والملوك، هو من أوسع كتب التاريخ الإسلامي وقد بدأه بمقدمة عن الكون (الزمان والليل والنَّهار والسماوات والأرض والشمس والقمر)، وخلق إبليس، وخلق آدم، ثم التاريخ للبشرية منذ هبوط آدم إلىٰ الأرض حتىٰ عصره، ووقف عند سنة: ٣٠٢هـ.

وقد رتب التاريخ منذ الهجرة النبوية علىٰ السنين، ويعرف هٰذا الترتيب بـ«النظام الحولي».

والطبري يذكر أسانيد الأخبار في الأعم الغالب، لكنه لا يشترط أن لا يورد إلاَّ خبرًا صحيحًا، أو لا يروي إلاَّ عن ثقة، بل اتَّبع أسلوب الجمع والتقميش، فقد يذكر الخبر ويذكر ما يناقضه دون أن يرجح رواية علىٰ أخرىٰ، أو يجمع بين الخبرين إذا أمكن الجمع، وإنما يترك ذٰلك لجهد القارىء وفطنته بعد أن قدم له وسيلة النَّقد من خلال ذكره للإسناد.

وقد نبَّه في مقدمته للكتاب علىٰ ذٰلك فقال: وليعلم الناظر في كتابنا هٰذا أنَّ اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه إنَّما هو علىٰ ما رويت من الأخبار والآثار التي أنا مسندها إلىٰ رواتها فيه.. فما يكن في كتابي هٰذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنَّه لم يعرف له وجهًا في

الصحة ولا معنىٰ في الحقيقة، فليعلم أنَّه لم يؤت من قبلنا، وإنما أتىٰ من قبل بعض ناقليه إلينا، وأنا إنما أدينا ذٰلك علىٰ نحو ما أدي إلينا(١).

فهو حافظ أمين يروي ما بلغه كما هو، ويسنده إلىٰ قائله أو ناقله إليه، ومن أسند فقد بريء من العهدة، ومع ذٰلك فكتابه لا يخلو من الإشارات النقدية لبعض الأخبار(٢) بل يرجح ويجمع بين الأخبار أحيانًا.

٢ـ الإمام الحافظ ابن كثير (٧٠٠ـ٧٧٤هـ)

ولد بقرية «مِجْدَل» من أعمال بصرى بالشام سنة: ٧٠٠هـ، وتوفي والده وهو ابن ثلاث سنين، وكان والده خطيب القرية، وابن كثير أصغر ولد أبيه، وانتقل إلىٰ دمشق سنة: ٧٠٧هـ، وبدأ طلب العلم علىٰ يدي أخيه عبدالوهاب(٣)، وقد حفظ القرآن، واعتنىٰ بالحديث، والتفسير، والفقه، والتاريخ، وتتلمذ علىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية ولازمه وأحبه، وكانت له به خصوصية واتباع ودفاع عنه حتىٰ أُوذي وامتحن بسبب ذٰلك(٤)، وأفادته تلك الصحبة أعظم الفوائد، في علمه، وتقوية خلقه، وتربية شخصيته المستقلة الممتازة، ولذٰلك كان مستقل الرَّأي، يدور مع الدليل حيث دار، لا يتعصب لمذهبه ولا لغيره، وكتبه العظيمة شاهدة بذٰلك(٥).

ومن شيوخه الكبار: أبوالحجاج المزي، وشمس الدين الذَّهبي،

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٧، ٨).
(٢) انظر علىٰ سبيل المثال (١/ ٢٣٢، ٢٧١، ٢٧٦، ٤/ ٣٦٥، ٤٩٧).
(٣) البداية والنهاية (١٤/ ٣١).
(٤) شذرات الذَّهب (٦/ ٢٣٢).
(٥) أحمد شاكر، مقدمة عمدة التفسير (١/ ٢٨).

وقد أثنىٰ عليه أهل العلم في عصره وبعد عصره.

فقال الذَّهبي: الإمام الفقيه المحدث الأوحد البارع، فقيه متفنن، ومحدث متقن، ومفسر نقَّال[(١)].

وقال تلميذه ابن حجي: كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بتخريجها ورجالها، وصحيحها وسقيمها، وكان يستحضر كثيرًا من التفسير والتاريخ، قليل النسيان، جيدالفهم صحيح الدين[(٢)].

وقال العلامة العيني: انتهىٰ إليه علم التاريخ والحديث والتفسير[(٣)].

وقال ابن حبيب: واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير[(٤)].

ومن أشهر مؤلفاته:

تفسير القرآن العظيم، وجامع المسانيد والسنن، والتكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل: (وقد جمع فيه بين كتابي: تهذيب الكمال للمزي، وميزان الاعتدال للذَّهبي، مع زيادات في الجرح والتعديل) وكتاب البداية والنِّهاية، وهو موسوعة شاملة في التاريخ، ابتدأه بالحديث عن المخلوقات (العرش والكرسي، والسموات والأرض وما فيهنَّ وما بينهنَّ من الملائكة والجان والشياطين) ثم عن خلق آدم عليه السلام، ووصل ذلك بالحديث عن الأنبياء والرسل عليهم السلام إلىٰ زمن عيسىٰ ابن مريم ـ عليه السلام ـ وبهذا ينتهي القسم

(١) المعجم المختص ص(٧٤).
(٢) النعيمي، الدارس في أخبار المدارس(١/ ٣٦، ٣٧).
(٣) النجوم الزاهرة(١١/ ١٢٣).
(٤) شذرات الذَّهب (٦/ ٢٣١).

الأول من الكتاب.

والقسم الثاني: كتاب أخبار الماضين من بني إسرائيل وغيرهم إلىٰ آخر زمن الفترة(يبدأ من: ٢/ ١٠٢) في كتاب البداية والنهاية، طبعة دار المعارف في بيروت.

والقسم الثالث: كتاب أخبار العرب، (يبدأ من ٢/ ١٥٦).

والقسم الرابع: كتاب سيرة رسول الله ﷺ: يبدأ من (٢/ ٢٥٢) وقد فصَّل في موضوعات السيرة النبوية، وأطال النَّفَس فيها، وجعلها في أقسام هي: المبتدأ، والمبعث، والغزوات والسرايا والوفود، وترجمة للنَّبي ﷺ وبيان زوجاته، وكتَّابه، وحرسه، وفرسه، وملابسه.. إلخ، ثم ختم الحديث عن سيرة النَّبي ﷺ بكتاب الشمائل (٦/ ١١) ثم كتاب دلائل النبوة (٦/ ٦٥) ثم تحدث عن الفضائل والخصائص (٦/ ٢٥٧).

والقسم الخامس: كتاب تاريخ الإسلام الأول من الحوادث الواقعة في الزمان، ووفيات المشاهير والأعيان».

وقد رتَّبه علىٰ السنين، وابتدأ بالسنة الحادية عشرة من الهجرة (٦/ ٣٠١) يورد الحوادث والوقائع في كل سنة، ثم يختم ذٰلك بذكر وفيات المشاهير والأعيان في تلك السنة، ويترجم لأكثرهم، وبعضهم يذكر وفاته فقط، وقد سار علىٰ هٰذا المنهج إلىٰ آخر الكتاب ووقف عند سنة: ٧٦٨هـ، أي قبل وفاته بست سنوات.

والقسم السادس: كتاب الفتن والملاحم الواقعة في آخر الزمان، وأشراط الساعة، والبعث والنشور، وصفة النار والجنة.

ولم يطبع هٰذا القسم مع الكتاب، وإنما طبع مستقلاً باسم:

النهاية في الفتن والملاحم، مع أنَّه قد نصَّ عليه في مقدمة الكتاب(١)، وأعاد ذكره بعد نهاية حديثه عن السيرة النبوية(٢)، وإليه الإشارة في اسم الكتاب «... والنهاية».

وقد اعتمد الحافظ ابن كثير في كتابه: «ما ورد في الكتاب والسنة والآثار والأخبار المقبولة عند العلماء ورثة الأنبياء الآخذين من مشكاة النبوة المصطفوية المحمَّدية»(٣).

قال: ولسنا نذكر من الإسرائيليات، إلاَّ ما أذن الشارع في نقله، مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب، مما فيه بسط لمختصر عندنا، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا، فنذكره علىٰ سبيل التحلي به لا علىٰ سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه، وإنما الاعتماد والاستناد علىٰ كتاب الله وسنة رسوله، وما صحَّ نقله أو حسن، وما كان فيه ضعف نبينه(٤).

هٰذا منهجه في السيرة النبوية وما قبلها من أخبار الأنبياء، وكذٰلك في القسم الأخير (الفتن والملاحم) الاعتماد علىٰ القرآن الكريم وما ورد في تفسيره مرفوعًا أو موقوفًا، وما وردت به السنة الصحيحة والحسنة، ويذكر ما فيه ضعف، لكنه ينبه عليه غالبًا، ويتميَّز منهجه بأنه يسوق الأحاديث والآثار بأسانيدها، ليتضح للقارىء والباحث أمرها،

---

(١) البداية والنهاية(١/ ٦).

(٢) المصدر السابق(٦/ ٣٠٠). وأخيرًا تم الجمع بينهما في طبعة الشيخ التركي للبداية والنهاية الصادرة عن دار هجر بالقاهرة.

(٣) المصدر السابق(١/ ٦).

(٤) المصدر السابق(١/ ٦).

روايته، وما عداه فلا يذكره إلاَّ علىٰ سبيل الانكار له.

وقد انتقد ـ رحمه الله ـ من يستوعب نقل الإسرائيليات من علماء الأمة فقال: ولسنا نحذوا حذوهم، ولا ننحو نحوهم، ولا نذكر منها إلاَّ القليل علىٰ سبيل الاختصار، ونبين ما فيه من حق، مما وافق ما عندنا، وما خالفه فوقع فيه الانكار(١).

ومن مصادره: كتب المغازي والدلائل، خاصة مغازي ابن إسحاق، وموسىٰ ابن عقبة، ودلائل النبوة لأبي نعيم، ودلائل النبوة للبيهقي.

ونظرًا لسعة اطلاعه وكثرة حفظه من السنة النبوية فإنَّه يكاد يكون قد استوعب ما في الصحاح والسنن والمسانيد والمصنفات، وكتب التفسير بالمأثور مما له علاقة بموضوعه.

أما مصادره في تاريخ الحوادث والوفيات فهي كتب التواريخ السابقة له، وخاصة كتاب تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري، والمنتظم لابن الجوزي، وكتاب الكامل لابن الأثير، وتاريخ الإسلام للذَّهبي، خاصة في الوفيات والتراجم.

وثقافة ابن كثير الواسعة في العلوم الشرعية، واستقامة عقيدته وفكره، ووجهته السُنيَّة، واضحة المعالم من خلال كتابه.

وهٰكذا فليكن المؤرخ المسلم في ثقافته ورؤيته التاريخية للأحداث، ومنهجه العلمي المؤصل.

(١) المصدر السابق(١/٦).

٣ـ محمّد صادق عرجون: ١٣٢١هـ، ١٤٠١هـ، الموافق ١٩٠٣م، ١٩٨٠م):

هو محمَّد الصادق إبراهيم عرجون، ولد بمصر سنة: ١٣٢١هـ، الموافق ١٩٠٣م، وتخرَّج في الأزهر علىٰ نظامه القديم سنة: ١٣٤٨هـ، الموافق: ١٩٢٩م، وعمل في المعاهد الأزهرية ثم صار عميدًا لكليَّة أصول الدين بالأزهر، وعمل أستاذًا بالجامعات الإسلامية في أم درمان، والكويت، والمدينة النبوية، وأم القرىٰ، وتوفي رحمه الله سنة: ١٤٠١هـ، الموافق ١٩٨٠م.

وله مؤلفات عدة في مجال تخصصه: (علوم القرآن والسنة) وفي المجال التاريخي، له مشاركات ومؤلفات منها:

عثمان بن عفان، خالد بن الوليد، محمّد ﷺ من نبعته إلىٰ بعثته، محمَّد رسول الله (في أربعة مجلدات).

وقد كانت مؤلفاته التاريخية موضع اهتمام وتقدير الباحثين لما تميَّزت به من الجدَّة في العرض، واتباع أسلوب النقد والتحليل، مع الاستقلال الفكري، والجرأة في النقد، ولذلك كشف في مؤلفاته الكثير من الأكاذيب والأغاليط، وصحح بعض الأخطاء الشائعة عند كثير من الناس، وإن كان بعض مؤلفاته لا يخلو من الاستطراد والحشو دون تحقيق.

والمنهج الذي استخدمه في نقد الأخبار هو: الموازنة بين الروايات والأحداث المتعددة، وقياسها علىٰ السنن الإلـٰهية، والاجتماعية، فهو يرسم معالم الشخصية التي يدرسها من خلال الأخبار والنصوص المحققة ثم يعرض بقية الأخبار علىٰ ضوء تلك المعالم الثابتة، فيقبل من الأخبار ما يتّفق معها ويرد ما يخالفها.

وهٰذا منهج مستقيم إذا لوحظ فيه تقلبات النفس البشرية وعدم افتراض أنَّ الشخصية الإنسانية ثابتة في جميع أطوارها وأحوالها[١]، والمؤلف يتوقىٰ هٰذا باعتماده في الغالب علىٰ الأخبار المحققة، والظاهر في دراساته التاريخية، الاعتماد علىٰ المقارنة بين النصوص ومناقشتها بالمنطق العقلي، وبموجب المعالم التي ترسمها النصوص الصحيحة للشخصية المدروسة، ولا يظهر نقد الأسانيد علىٰ منهج المحدثين وطريقتهم علىٰ منهجه، مع أنَّه يقول في بيان منهجه: وعمود البحث في منهجنا المحدثين وطريقتهم علىٰ منهجه، مع أنَّه يقول في بيان منهجه: وعمود البحث في منهجنا هو ما أصلنا في كتبنا ومؤلفاتنا ولا سيما التاريخية منها، أنَّنا نقرأ ونقرأ حتىٰ نظن أنَّنا استوعبنا أو قاربنا، ثم نُفَحِّص ونمحِّص، ونوازن، وننقد، ونعتمد ما ثبت لدينا صحته سندًا ويدخل في وصيد[٢] القبول متنًا وأصلاً، ولم يعارضه من منخول العقل والعلم ما يعلو عليه، مع إيماننا بأنَّ للعقل حدًا يقف عنده، ولقضايا العلم موضوعات تنتهي عندها، وهما محجوبان عن عالم الغيب[٣].

ومن معالم منهجه احترامه لأقدار الرجال، وخاصة أصحاب محمَّد ﷺ، ولذٰلك أشار إشارة لطيفة إلىٰ القاعدة الذَّهبية الرفيعة التي قرَّرها علماء الإسلام بشأن الصحابة والسلف الأولين وهي: وجوب الكف عمَّا شجر بين الصحابة من خلاف، رادًا بها علىٰ من يرفعون

---

(١) انظر: مقدمة سيد قطب لكتاب خالد بن الوليد ص(٧).

(٢) وصيد القبول: باب القبول.

(٣) محمَّد رسول الله(١/ ٢٠).

عقيرتهم باسم: «حرية البحث العلمي» و«قداسة العلم والرَّأي» كما يزعمون، فقال: ومن ثم أوصد بعض علمائنا باب البحث فيما وقع في هٰذه المرحلة رحمة بالنَّاس أن تزل بهم قدم الشبهات أو ينفلت من يدهم معيار التقدير للحوادث وبواعثها، والأشخاص ومقاصدها... وتمكينًا لحسن الظن بأولٰئك الأسلاف الذين بنوا أضخم بناء فأحسنوا تشييده، ووطدوا تأسيسه، فعجز الخلائف عن حراسة هٰذا البناء العظيم بأعمالهم، ولم تبق لهم إلاَّ ألسنة لو أطلقت من عقلها بغير رقابة لقالت في السابقين الأولين... ولئن كان هٰذا المبدأ مجافيًا لحريَّة الجهلة عن الخوض في سير الأبرار، حتىٰ يكون في قلوب أنصار القداسة الفكرية، وحرية الرأي، إيمان يحجزهم عن التقول للهوىٰ، وحتىٰ يكون لعقولهم غذاء من العلم المصفَّىٰ يسمو بهم عن آفاق التقليد[1].

ثانيًا: الاتجاه الشيعي:

المسعودي: (...ـ٣٤٦هـ)

هو علي بن الحسين بن علي بن عبدالله المسعودي، نسبة إلىٰ جده الأعلىٰ عبدالله بن مسعود، الصحابي المعروف.

ولد في بغداد، ولا يعرف علىٰ وجه التحديد تاريخ ولادته، ولكنها تقدر في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، أخباري، رحَّالة، جاب البلاد، واستقر بمصر، ومات بها سنة: ٣٤٦هـ.

قال الذَّهبي: كان أخباريًا صاحب مُلح وغرائب وعجائب وفنون، وكان معتزليًا[2].

---

(١) عثمان بن عفان ص(١٨، ١٩).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٥/ ٥٦٩).

وقال الحافظ ابن حجر: وكتبه طافحة بأنه كان شيعيًا معتزليًا[١].

قلتُ: وهٰذا واضح لمن اطَّلع علىٰ كتابيه المعروفين، مروج الذَّهب، والتنبيه والإشراف، وقد نصَّ هو في كتاب مروج الذَّهب علىٰ مؤلفاته التي منها:

الاستبصار في الإمامة، والصفوة في الإمامة، وسر الحياة، وذكر في أول كتاب مروج الذَّهب[٢] خبرًا طويلاً نسبه لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ينص فيه علىٰ عقيدة الشيعة في أئمتهم، والادعاء بأنَّهم أنوار السماء والأرض، وبهم النجاة، وفيهم مكنون العلم وإليهم مصير الأمور... إلخ.

وفي عرضه لتاريخ الخلفاء الراشدين، والأحداث التي وقعت في زمانهم مثل: بيعة أبي بكر في السقيفة، والشُّورىٰ واستخلاف عثمان، ومقتل عثمان، والجمل، وصفين، والتحكيم، يتبنىٰ روايات الشيعة من أمثال أبي مخنف وغيره.

مؤلفاته:

للمسعودي مؤلفات كثيرة نصَّ عليها في مقدمتَيْ كتابَيْهِ، مروج الذَّهب، والتنبيه والإشراف، منها:

كتاب كبير حسب وصفه سماه: «أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية، والكتاب الأوسط، وكتاب الاستذكار لما جرىٰ في سالف الأعصار، وكتبًا أخرىٰ في الفِرَق والمقالات.

والمعروف من كتبه: كتاب مروج الذَّهب ومعادن الجوهر، وهو

---

(١) لسان الميزان (٤/ ٢٢٥).
(٢) مروج الذَّهب (١/ ٣٢، ٣٣).

مطبوع في أربعة أجزاء، وكتاب التنبيه والاشراف، جزء واحد، وكلا الكتابين يحوي معلومات جغرافية وتاريخية وفلكية وفنون أخرىٰ منثورة.

وكتاب مروج الذَّهب يشتمل علىٰ اثنين وثلاثين ومائة باب.

أولها: ذكر المبدأ وشأن الخليقة من آدم عليه السلام إلىٰ إبراهيم ـ عليه السلام ـ ثم سرد الأبواب التي منها: بنوا اسرائيل، والأرض، والبحار، والأنهار، وملوك الهند، والصين، والخزر، والسريان، والفُرس، واليونان، ومصر، ونيلها وملوكها، والسودان، والصقالبة، والفرنجة، وعاد، وثمود، ومكة وأخبارها، واليمن وملوكها من التابعة، والعرب وأديانها، وجامع تاريخ العالم من بدئه إلىٰ مولد رسول الله ﷺ وبعثته، ثم التاريخ الإسلامي من الهجرة إلىٰ عصر المؤلف حسب ترتيب الخلفاء.

وهٰذا الكتاب ليس تاريخًا محققًا بل جمل من القصص والنوادر والأخبار والحكايات، والوصف لبعض المشاهدات والمناظرات، وذٰلك مما تداوله الرواة والنقلة للأخبار عن الأمم الماضية، وهٰذه الأخبار منها: ما يكون له أصل ولكن بعضه حرف بالزيادة أو النقص.

ومنها: ما ليس له أصل يعرف به ومنها: المخترع وما يدخل في الخرافات.

وأدق المعلومات في كتابه، هي المعلومات الفلكية، والجغرافية، والمسعودي في كتاب مروج الذَّهب ينهج المنهج الشيعي، ويورد الأخبار من غير إسناد، وينقل عن رواة الشيعة، ويكرر مفترياتهم علىٰ الصحابة، وخلفاء المسلمين، ويتوسع كثيرًا في أخبار الفتن، فقد خصَّص ثمانيًا وأربعين صفحة للحديث عن وقعتي الجمل وصفين في

حين كان حديثه عن خلافة أبي بكر كلها في سبع صفحات ونصف، وعن خلافة عثمان ثمان عشرة صفحة، مع أنَّ الكتاب مختصر كما يكرر ذلك ويعتذر به في عدم التفصيل.

والمؤلف يستخدم التقية، ويعرض المعلومات في ذكاء، ولكن القاريء الفطن لا يصعب عليه معرفة أمره، وملاحظة تناقضه، والوقوف على الأخبار التي لا يخفي كذبها[1].

ثالثًا: الاتجاه العلماني:

العلمانية: اتجاه فكري يسعى لإقامة الحياة والمجتمع والدولة على غير الدين، وهي اصطلاح لا صلة له بكلمة العلم، بل تعني اللادينية أو الدنيوية[2].

وقد نشأت في أوربا ثم عمت أقطار العالم بتأثير من الاستعمار والتبشير، ثم دخلت إلى ميدان الدراسات الإسلامية عن طريق الاستشراق ودراساته المختلفة، ومناهجه التي نشرها وقرَّرها في الجامعات ومراكز الأبحاث العلمية.

١ـ طه حسين: (١٣٠٧ـ ١٣٩٣هـ الموافق ١٨٨٩م ١٩٧٣م)

ولد بمصر سنة: (١٣٠٧هـ، الموافق ١٨٨٩م)، وأُصيب بالعمى في السنة الخامسة من عمره، والتحق بالأزهر لكنه لم يكمل الدراسة به، وانضم إلى الجامعة المصرية سنة: (١٣٢٦هـ، الموافق ١٩٠٨م) عند أول افتتاحها، وكانت تضم عددًا غير قليل من المستشرقين،

---

(١) انظر منها أمثلة في الكتاب(٢/ ٣٠٨، ٣٤٦، ٣٦٣، ٣٦٧، ٤٣٨، ٤/ ٤١).

(٢) عن العلمانية راجع الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، وكتاب العلمانية للدكتور سفر الحوالي.

وحصل منها علىٰ شهادة الدكتوراه عن بحثه: «ذكرى أبي العلاء المعري» ثم سافر إلىٰ أوربا، والتحق بجامعة السوربون في باريس ونال منها درجة دكتوراه (سنة: ١٣٣٦هـ، الموافق ١٩١٧م)، وهناك تزوَّج امرأة فرنسية ثم عاد إلىٰ مصر، وتولىٰ في الجامعة المصرية تدريس التاريخ القديم (اليوناني والروماني) والأدب العربي، حيث أصدر كتابه: في الشِّعر الجاهلي (سنة: ١٣٤٥هـ، الموافق ١٩٢٦م) الذي تبني فيه آراء غريبة استوحاها من المبشرين والمستشرقين مما جعل علماء الأزهر يحكمون بمنع الكتاب وإحراقه ثم أصدر بعد ذٰلك كتابه: مستقبل الثقافة في مصر، والذي يوضح وجهته الفكرية، حيث ادَّعىٰ أنَّ مصر مرتبطة بأوربا، وأنَّ كل خير جاءها من أوربا وكل شر جاءها من الشرق، كما دعا بحماس إلىٰ أخذ الثقافة والحياة الأوربية بخيرها وشرها وحلوها مرها، واقتفاء أثر أوربا وسلوك طريقتهم في كل شيء.

وقد أصدر طٰه حسين مجموعة من الكتب حول التاريخ الإسلامي منها: الشيخان، الفتنة الكبرىٰ (جزءان) الأول عن عثمان، والثاني بعنوان: علي وبنوه، وعلىٰ هامش السيرة، ومرآة الإسلام، وهٰذه الكتب ليست في الحقيقة دراسات تاريخية جادَّة، وإنما هي صياغة أدبية قصصية، تفتقد التوثيق العلمي للنصوص، والرجوع إلىٰ المصادر الأصلية، كما تفتقد النقد المنهجي العلمي للنصوص، وكذا نقد المصادر، والمقارنة بين الروايات لمعرفة الحقيقة وهي تنهج النهج الاستشراقي، ولهٰذا قال (ماسنيون) أنَّني حين أقرأ كتب طٰه حسين أقول: هٰذه بضاعتنا ردت إلينا»[(١)].

---

(١) أنور الجندي، طٰه حسين حياته وفكره ص(٣٦).

وقد استخدم أسلوبين في كتابته وعرضه لهٰذه الموضوعات:

الأسلوب الأول: الهجوم علىٰ التاريخ الإسلامي والتشكيك في صحة وقائعة، وعدم احترام السلف الأولين من الصحابة والتابعين، واتهام مؤرخي الإسلام في مناهجهم العلمية، تحت ستار المنطق العقلي، والحرية الفكرية التي لا تصدر عن عاطفة لا تتأثر بالإيمان والدين[(١)] (كما يزعم) وبذٰلك مهّد الطريق «لعلمنة» هٰذا الفرع من الدراسات الإنسانية، كما يقول أحد تلاميذه[(٢)]:

الأسلوب الثاني: إدخال الأساطير والخرافات إلىٰ التاريخ الإسلامي اعتمادًا علىٰ الخيال ورغبة في التهويل، وهٰذا الأسلوب واضح في كتابه: علىٰ هامش السيرة، وهو مناقض للأسلوب الأول الذي يدَّعي فيه العلمية، وتحكيم العقل والمنطق، مما ينبىء عن سوء النية والقصد في دراساته.

وطريقة عرضه تتميّز بما يلي:

١ـ إثارة الشكوك وترك الأمر دون إجابة صحيحة، ويكثر من قوله: لعلَّ، وربّما كان الأمر، ويقال، وقيل، ويروى، وأكاد أقطع، وأكبر الظن.

٢ـ التقاط الأخبار من المصادر الثانوية والكتب غير المعتمدة في التخصص.

٣ـ انتقاص أقدار الرجال وعدم احترامهم.

٤ـ المبالغة والتهويل والاستعلاء علىٰ الآخرين.

---

(١) الفتنة الكبرىٰ ص(٤، ٥).

(٢) محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي ص(١٨٧).

٥ـ تحكيم الذوق، والذاتية الكيفية في نقد النصوص التاريخية.
٦ـ التكرار والغموض وعدم الإفصاح عن غايته بوضوح.
٧ـ السطحية في استقصاء الأسباب ومناقشتها.
٨ـ التهور والمجازفة في الاستنتاج.

وفي الجملة فالانحراف الفكري عن الإسلام وتاريخه واضح في كتاباته. والمجازفة وتحكيم الذوق والهوىٰ، وعدم الرجوع للمصادر الأصيلة يفقد دراساته الصفة العلمية، ويجعلها في عداد القصص والروايات والتأليف الشعبي الذي لا يسعىٰ لمعرفة الحقيقة بقدر ما يقصد إلىٰ الإثارة والتأثير[1].

٢ـ فيليب حتيّ (١٣٠٤هـ، الموافق: ١٨٨٦م)

هو فيليب خوري حتيٍّ، لبناني الأصل، أمريكي الجنسية، ولد في لبنان سنة: (١٣٠٤هـ، الموافق: ١٨٨٦م) وتخرَّج في الجامعة الأمريكية في بيروت (سنة: ١٣٢٦هـ، الموافق ١٩٠٨م)، ونال الدكتوراه من جامعة كولومبيا في الولايات المتَّحدة الأمريكية (عام: ١٣٣٤هـ، الموافق: ١٩١٥م)، وعين معيدًا فيها ثم أستاذًا لتاريخ العرب في الجامعة الأمريكية في بيروت، وقد عمل أستاذًا في العديد من الجامعات الأمريكية مثل: برنستون، وهارفارد، وعين في نفس الوقت

---

(١) راجع عن طه حسين:
- الفكر الإسلامي المعاصر، دراسة وتقويم، لغازي التوبة.
- دراسات في السيرة، لمحمد سرور زين العابدين.
- طه حسين حياته وفكره، لأنور الجندي.
- طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، لمحمود مهدي الاستانبولي.
- طه حسين، لإسماعيل أدهم.

مستشارًا لوزارة الخارجية الأمريكية في شؤون الشرق الأوسط، وكان له نشاط في التأليف ومن مشهور مؤلفاته: تاريخ العرب مُطوّل، أصول الشَّعب الدرزي وديانته، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، تاريخ العرب موجز. ومؤلفاته كلها باللغة الإنجليزية ثم تترجم إلىٰ العديد من اللغات ومنها اللغة العربية، وقد صدرت إحدىٰ طبعات كتابه: تاريخ العرب موجز، عن المجلس الحربي الأمريكي، وفي خمسين ألف نسخة.

وسوف نتعرَّف علىٰ منهجه وبعض آرائه من خلال كتابه: تاريخ العرب مُطوّل وهـٰذا الكتاب يقع في ثلاثة أجزاء تشمل تاريخ العرب منذ الجاهلية وحتىٰ العصر الحاضر، وكانت أولىٰ طبعاته قد صدرت باللغة الإنجليزية سنة: (١٣٥٦هـ، الموافق ١٩٣٧م)، كما ظهرت أول طبعة باللغة العربية سنة: ١٣٦٩هـ، الموافق: ١٩٤٩م)، وقد جعله في ستة أقسام، وهو تاريخ سياسي حضاري، شامل لفترة طويلة من الزمن، ومحيط بكثير من الدول، وهـٰذه ميزته الوحيدة، لكنه معروض من وجهة نظر مؤلفه ذي الديانة النصرانية والثقافة الاستشراقية الغربية، وهو مكتوب أصلاً لأهل هـٰذه الثقافة، ولذٰلك لا يصلح مرجعًا للباحثين المسلمين، وقد كرَّر واجتر «حتي» في كتابه هـٰذا المزاعم التي افتراها وأثارها علىٰ الدَّعوة الإسلامية أسلافه من اليهود والنصارىٰ، والذين أشركوا، وردَّدها المستشرقون في العصر الحديث.

وقد استخدم فيليب حتّي، طرقًا وأساليب متعددة لغرض الوصول إلىٰ هدفه المحدد وعرض ما يريد في كتابه هـٰذا ومنها:

١ـ التركيز علىٰ موضوعات محدَّدة، والقفز والتجاهل لموضوعات هي أكثر إشراقًا وأولىٰ بالبحث لظهور مواطن التأسي والقدوة فيها.

٢ـ استخدام عبارات التمريض والتشكيك في ذكره لموضوعات وحوادث ثابتة وصحيحة «يحكى، يروى، يقال، تزعم الرواية...».

٣ـ التهوين من قيمة المصادر العربية الإسلامية والتشكيك في معلوماتها، واتِّهام مؤلفيها بالتحيز وعدم الموضوعية[١].

٤ـ الإعلاء من شأن الدراسات المعاصرة والتي كتبها الرحالة الغربيون عن جزيرة العرب، والباحثون في الآثار والحفريات، وكذا المعلومات الوادرة في المصادر اليونانية والرومانية، والعناية بها[٢].

٥ـ الاتهام الصريح، والمعلومات الكاذبة، وقبول الأخبار دون نقد، وتمحيص لها أو مقارنتها بالروايات الأخرىٰ إذا كانت موافقة لهواه[٣]، يقول عن حركة الفتح الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين (١/ ١٩٧): «لم تكن هٰذه الحملات نتيجة خطة رسمها أولياء الأمر من قبل بل بدأت الحملات كغزوات يقصد بها الوصول إلىٰ منافذ جديدة لروح القبائل الثائرة... وكان الغرض منها في كثرة الأحوال الغنيمة لا الاحتلال» فهو يجعل الفتح الإسلامي قد جاء عشوائيًا دون خطة من دولة الخلافة، ويجعل أغراضه وأهدافه الحصول علىٰ المغانم، وإشغال القبائل العربية التي تعودت السلب والنهب في جاهليتها.

ويقول في نفس الموضع (١/ ١٩٧): والعرب الذين فاجأوا العالم وانقضوا عليه إنَّما كانو مدفوعين بعامل قومي، فالفوز الأول كان للقومية العربية لا للدِّين الإسلامي.

---

(١) تاريخ العرب مطول ص(٧).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه (١/ ١٧٤، ٣٧٧، ٥٠٧، ٥١١، ٥١٨).

ويقول (١/ ١٩٦)، فإذا تحرينا التوسع الإسلامي وأحطنا بالأحوال الحقيقية التي أحدقت به اتَّضح لنا أنَّه كان الشوط الأخير في عملية النزوح المتواصل علىٰ مدىٰ الدَّهر من البادية القاحلة إلىٰ ما يتاخمها من أنحاء الهلال الخصيب».

٦ـ بتر النصوص لتدل علىٰ ما يذهب إليه من رأي، فحتى يُقْنِع القارىء بأنَّ الفاتحين المسلمين كانوا مدفوعين بالعامل الاقتصادي، يذكر طرفًا من المحاورة التي تمت بين رستم قائد الفرس، وبين المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ واقتصر علىٰ كلام رستم الذي يقول فيه: قد علمتُ أنَّه لم يحملكم علىٰ ما أنتم فيه إلاَّ ضيق المعاش وشدة الجهد، ونحن نعطيكم ما تشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون (١/ ١٩٦).

وقد ترك جواب المغيرة لرستم، لأنَّه يدل علىٰ عكس ما يريد أن يثبت، وهو في فتوح البلدان (ص٥٧) فقال المغيرة: إنَّ الله بعث إلينا نبيه ﷺ فسعدنا بإجابته واتباعه، وأمرنا بجهاد مَنْ خالف ديننا حتىٰ يعطوا الجِزية عن يد، وهم صاغرون، ونحن ندعوك إلىٰ عبادة الله وحده والإيمان بنبيه، فإن فعلت وإلاَّ فالسيف بيننا وبينك.

وهٰذا الجواب بيِّن في هدف الفتوحات الإسلامية[1].

٦ـ التفسير الصحيح للأحداث:

تفسير الأحداث والوقائع التاريخية، يختلف بحسب اختلاف العقائد والتصورات، عن الإنسان، ووظيفته في الحياة، وعن الكون

(١) عن فيليب حتَّىٰ راجع المستشرقون، لنجيب العقيقي، وموضوعية فيليب حتَّىٰ لشوقي أبوخليل.

ونظامه، وعن الإلـٰه الذي خلق الكون. والإنسان المسلم الفقيه في دينه، العالم بمقاصده وأهدافه، يتميَّز عن غيره بأنَّ عقيدته وتصوراته وقناعاته الفكرية متلقاة من مصادر ربانية، ولذٰلك يلتزم في تفسير الأحداث والوقائع بالأصول والقواعد الشرعية، والسنن الربانية، فيقع تحليله للأحداث في الغالب أقرب إلىٰ الصواب، لأنَّه يؤمن بالغيب، ويعرف أسباب التمكين، وعوامل الفناء والسقوط، ويؤمن بعدل الله ونصره للمؤمنين، وعدم تمكينه للظالمين والكافرين إلاَّ من باب الاستدراج لهم، أما المؤرخ الكافر أصلاً أو العلماني الذي لا يلتزم بالشريعة ولا يؤمن بالغيب أو يكون إيمانه وتصوره مشوشًا، فإنَّ تفسيره للأحداث غير موفق في الغالب، وغير كامل، بسبب قصور طبيعي في منهجه الفكري، وهو: عدم إيمانه بالغيب وما يترتب عليه، وبسبب نظرته المادية للأسباب والمسببات والاعتماد الكلي عليها، ولعدم إدراكه لكامل للعوامل المؤثرة في الحدث التاريخي، ومعرفة التصور الصحيح عن هـٰذه العوامل وعلاقة بعضها ببعض، وتأثير بعضها في بعض.

والعوامل المؤثرة في الحدث التاريخي التي يجب ملاحظتها عند تفسير الأحداث هي:

أ ـ الإنسان الذي هو محور الحركة التاريخية من هو؟ وما وظيفته؟ وما مصيره؟ و ماالعقيدة التي تُسيِّره؟ وما هي قدراته واستعداداته؟ وما هو الميزان الذي يوزن به انتاجه وعمله؟

ب ـ العوامل الطبيعية«المادية» المحيطة بالإنسان، مثل المكان، والزمان، والمناخ.

ج ـ قدر الله النافذ والمحيط بالإنسان والزمان والمكان وكل شيء.

فإذا لم تلاحظ هـٰذه العناصر الفاعلة في الحدث التاريخي يأتي التفسير ناقصًا ومشوهًا أو غير صحيح.

واعلم أنَّ تفسير الأحداث مرحلة تأتي بعد مرحلة التحقيق والنقد للأخبار والروايات، فما ثبت من الوقائع والروايات فهو الذي يفسر ويحلل وتدرس بواعثه وارتباطاته ويتعرف علىٰ دلالته وآثاره.

والتفسير التاريخي له أركان ومصادر، ومنطلقات ومبادىء، وله غايات يحققها:

(أ) أركانه:

فأما أركانه فهي:

١ـ الإنسان.

٢ـ الزمان والمكان.

٣ـ المشيئة والقدر الإلـٰهي.

وتفسير التاريخ يتطلب معرفة التصور الصحيح عن هـٰذه الأركان، وإدراك العلاقة بينها، فمن يعرف التصور الصحيح عن هـٰذه الأركان من خلال الرجوع إلىٰ المصدر الحق «الكتاب والسنة» فإنَّه يستطيع أن يفسر تاريخ البشرية كله، وذٰلك بالرجوع إلىٰ الوحي الذي يعطي التصور المستقيم عن الإنسان، فاعل الحدث، ومحور الحركة التاريخية، من هو؟ ما هي وظيفته؟ ما هو مصيره؟ وما هي استعداداته وقدراته؟ وما العقيدة التي تسيره؟ وما المصير الذي يصير إليه؟.

وعن السنن الإلـٰهية التي تسير في إطارها الأحداث ويحكم بموجبها علىٰ الأمم، والدول والأشخاص.

ومن المعلوم أنَّ الأفكار والتصورات والعقائد تؤثر في توجيه

الأحداث واتخاذ المواقف.

أما الزمان فهو الأيام والليالي والسنون التي هي وعاء الأحداث التاريخية، وهو الماضي، والحاضر، والمستقبل القريب والبعيد الذي يمتد إلىٰ اليوم الآخر، كما أنَّ المؤثرات المناخية والطبيعية المحيطة بالإنسان، لها أثر في توجيه الأحداث لا بد من مراعاته.

والركن الثالث والمهم هو الإيمان بالقدر والمشيئة والعلم الإلـٰهي المحيط بكل شيء، والإيمان بالغيب واليوم الآخر.

فالأحداث التاريخية هي عمل من أعمال الإنسان في حين أنَّها قدر من أقدار الله، والإنسان مسئول عن عمله مسئولية كاملة، فقد أعطي من وسائل المعرفة والإدراك وحرية الإرادة، إضافة إلىٰ الشريعة التي جاء بها الرسل ما يميز به بين الحق والباطل، والخير والشر.

فإذا عرفت هـٰذه الأركان، وعرفت العلاقة الصحيحة بينها، أمكنك ذٰلك من تفسير حوادث التاريخ تفسيرًا مستقيمًا، وعليك بالاستفادة من طريقة القرآن الكريم في عرض وسياق الأحداث التاريخية، ودعوته إلىٰ إدراك السنن، والافادة من التجارب البشرية السابقة، إنَّ القصص القرآني عن الأمم السابقة وعن الرسل ومن أرسلوا لهم، يوضح لنا مجرىٰ تاريخ البشرية منذ فجرها الأول وحتىٰ حاضرها الماثل، بل ومستقبلها القادم، ونهاية تاريخها، ومصيرها بعد الحياة الدنيا.

وإننا من خلال النظر في السنن الربانية في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ نستطيع أن نفهم التاريخ كله، ونفسر أحداثه، ونعرف عوامل البناء والأمن والبقاء، ومعاول الهدم والخوف والفناء، ولا يعني ذٰلك إغفال تواريخ الأمم والتجارب البشرية التي لم تذكر في القرآن أو في السنة

النبوية، وإنما القرآن والسنة يكونان لنا مصدرًا في معرفة الميزان والمنهج الذي ندرس به حوادث التاريخ ونفسرها علىٰ ضوئه.

(ب) منطلقات التفسير الإسلامي للتاريخ:

التفسير الإسلامي للأحداث التاريخية له منطلقات وأسس يجب الالتزام بها وعدم الخروج عنها وهي:

١ـ المنطلق العقدي: فلا بد من الالتزام بالعقيدة الإسلامية، ومبادئها، وأخلاقها، حتىٰ يتسق سلوك الباحث وعمله العلمي وإنتاجه المادي مع منهجه وتصوره الفكري، إذ العقيدة تمثل النظام الفكري للإنسان المسلم الذي يبني عليه السلوك العملي بمختلف مجالاته.

٢ـ المنطلق التربوي: وذٰلك أنَّ من أهداف التفسير التاريخي للأحداث، التربية بهٰذه الأحداث، واستخلاص العبر والعظات، والمعاونة علىٰ سلوك طريق الاستقامة، وتجنب المصائر المؤلمة التي صارت إليها مجموعة من الأمم السابقة، ومعرفة الأخطاء التي وقعت فيها، والعمل علىٰ بناء الحضارة والمدنية علىٰ المنهج السليم.

٣ـ المنطلق العلمي: الذي يهدف إلىٰ كشف الحقائق وإثبات الوقائع التاريخية وإيضاحها، وذٰلك باتباع الأسلوب والمنهج العلمي في النقد والتمحيص، والترتيب العقلي والمنطقي للمباحث العلمية، والرجوع إلىٰ المصادر ليصل إلىٰ الحقيقة وينفي الزيف والكذب.

(ج) غاية التفسير الإسلامي للتاريخ:

إنَّ الغايات التي يُسعىٰ إلىٰ تحقيقها والوصول إليها من خلال التفسير الإسلامي للتاريخ كثيرة ومتنوعة ومن أهمها:

١ـ السعي لتكميل الغاية الأساسية من خلق الإنسان، وهي تحقيق

العبودية لله سبحانه وتعالىٰ، لأنَّ عمل المسلم الفكري ونتاجه العلمي يجب أن يكون مرتبطًا بعقيدته، وبذٰلك لا يخالف مبدءًا ولا حكمًا من أحكامها، بل تكون كتابته في مجال التاريخ ملتزمة بالأحكام الشرعية والأهداف التربوية، ومن المعلوم أنَّ المنهج التاريخي وسيلة من وسائل تثبيت العقيدة وبيان ما يخالفها من المحدثات والبدع.

٢ـ إظهار الحقائق وإثباتها، ثم تقويمها وفقًا للمقاييس الشرعية، لأنَّ المنهج الإسلامي في دراسة التاريخ منهج «وصفي» أي يصف الواقع كما كان، ويتحقق من صحة الوقائع باستخدام المنهج العلمي في النقد وإثبات الحقائق، ثم لا يكتفي بذٰلك بل هو منهج «معياري» يزن الوقائع والمواقف وفقًا للأحكام الشرعية، والمفاهيم الاعتقادية، إذ هي الميزان الذي توزن به الأحداث والقيم والنظم، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥] فالشرع هو الميزان.

٣ـ المساعدة علىٰ تقويم سلوك الإنسان بما يوافق الحق، وذٰلك ببيان خطر الانحراف واتباع الباطل، وتوظيف الأحداث التاريخية لخدمة الأهداف التربوية والتعليمية لتقويم مسيرة الأمة والاسهام في رسم خط سيرها وتحديد ملامح مستقبلها.

أمثلة تطبيقية من سقوط الأمم:

وكما يقال: بالمثال يتَّضح المقال إليك أمثلة تطبيقية من تاريخ بعض الحضارات وسقوطها، ونقدم بين يدي ذٰلك ذكر عوامل قيام الدول والحضارات، ومعاول سقوطها في ضوء التفسير الإسلامي للتاريخ.

وأحسبك لا زلت متذكرًا لما سبق بيانه في الفصل الأول عن السنن الربانية، وظهورها في وقائع التاريخ، والتي وضحت العوامل المعنوية والفكرية لقيام الدول والحضارات واستقرارها وانهيارها.

فالأمم أو الدول نوعان:

١ـ دول شرعية: وهي التي تتبع ملة نبوية وديانة إلٰهية والسيادة فيها للأحكام الشرعية، ومن المعلوم أنَّ شريعة الإسلام قد نَسَخَت وأبطلت جميع الشرائع فلا يكتسب هٰذا الوصف غير الدولة الإسلامية المحكِّمة للشريعة ولهٰذا قال ابن خلدون في تعريف الخلافة: هي حمل الكافة علىٰ مقتضىٰ النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلىٰ اعتبارها بمصالح الآخرة[1].

٢ـ دول وضعية: وهي التي تعتمد علىٰ النظم البشرية الوضعية، وتقوم علىٰ الملك الطبيعي، الذي هو حمل الكافة علىٰ مقتضىٰ الغرض والشهوة، أو الملك السياسي، وهو حمل الكافة علىٰ مقتضىٰ النَّظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار[2].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص(١٩).

(٢) المصدر نفسه.

والمراد هنا في بيان عوامل البناء، ومعاول الهدم والانهيار، هو الدول الشرعية، وتشاركها الدول الوضعية الدنيوية في أغلب العوامل.

وبموجب السنن الإلـٰهية، فإنَّ الدول الوضعية لا بد من زوالها، بخلاف الدول الشرعية التي الأصل فيها البقاء والاستقرار، ما دامت محافظة علىٰ المنهج ومستجيبة للأمر الإلـٰهي، ولا يقع لها السقوط والنقص إلاَّ بسبب الانحراف.

وسقوط الدول وزوالها علىٰ نوعين:

١ـ سقوط أمة، بمعنىٰ طائفة من الناس، أو أسرة من الأسر الحاكمة، وهـٰذا كثير الوقوع في التاريخ الإسلامي وغيره، وهو سنة من سنن الحياة، فإنَّ للدول أعمارًا وآجالاً كما للأفراد، وقد ذكر العلامة ابن خلدون: أنَّ أعمار مثل هـٰذه الدول في الغالب ثلاثة أجيال[1]: وقد تسقط قبل ذٰلك بفعل خارجي، وقد تمتد ويزاد في عمرها لعوامل التجديد وإقامة العدل، ومثل هـٰذا السقوط لا يحدث تغييرًا كبيرًا في بنية المجتمع لأنَّه لا يعدو أن يكون تغييرًا لأشخاص السلطة أما المنهج والعقيدة فهي باقية.

٢ـ وسقوط ملَّة، وهـٰذا هو السقوط الكبير والمؤثر، لأنَّه يترتَّب عليه تغيير المنهج والاعتقاد، وسيادة منهج بديل، وقد أسقطت الفتوحات الإسلامية كثيرًا من الملل الكافرة، وأحلت محلها ملَّة الإسلام وشريعته. إن السقوط المؤلم هو سقوط بعض ديار الإسلام بأيدي الكافرين، مثل سقوط الأندلس، وسقوط الخلافة العثمانية، وسقوط فلسطين، أو أي بلد إسلامي بيد الكفار والمرتدين.

---

(١) المقدمة ص(١٧٠).

عوامل قيام الدول واستقرارها:

١ـ الإرادة والعمل وتوفر القوة الموجبة لذلك، فالإرادة هي الأساس والباعث والعمل هو ثمرة الإرادة مما يوجب السعي لتوفير القوة الممكنة للقيام والاستقرار.

٢ـ تطبيق منهج الله وشرعه في واقع الحياة قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور: ٥٥].

٣ـ الحكم بالعدل والقسط بين الناس وانتفاء الظلم، قال ﷺ: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. . .»[متفق عليه].

٤ـ سلامة المجتمع من الانحرافات والمعاصي قال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الجن: ١٦].

٥ـ القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج: ٤١].

٦ـ التقوىٰ والإيمان المنشيء للحيوية والطموح قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

معاول السقوط والانهيار:

إنَّ كل عمل يضاد عوامل البناء هو معول هدم وسقوط في بناء الدولة والمجتمع، ومن هٰذه المعاول.

١ـ تكذيب الرسل وماجاءوا به، والأعراض عن الدين الحق وترك العمل به، قال تعالىٰ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان: ٣٧ـ٣٩].

٢ـ انتشار الظلم والطغيان ومصادرة حريات النَّاس.

٣ـ الضعف الخلقي المؤدي إلىٰ انتشار المفاسد والمعاصي في الأمة والاستعلان والمجاهرة بذٰلك، مع عدم الإنكار والأخذ علىٰ يد المفسدين.

٤ـ التنازع والتفرق والاختلاف، قال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

٥ـ سيادة المترفين، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

٦ـ فساد الاعتقاد والسلبية والتواكل.

نماذج من سقوط الدول:

نعرض في هٰذا المبحث لثلاثة نماذج من سقوط الدول في التاريخ، نموذجين من تاريخ الجاهليات القديمة، والنموذج الثالث من التاريخ الإسلامي.

النموذج الأول:

سقوط الحضارة الإغريقية:

بلاد الإغريق هي اليونان، وتقع في الجزء الجنوبي لشبه جزيرة البلقان، ويحدها من الشرق: البحر الإيجي الذي يفصلها عن آسيا الصغرىٰ، ومن الغرب: البحر الإدرياتيكي، والبحر الأيوني اللذان يفصلان بينها وبين شبه الجزيرة الإيطالية، وتطل في جنوبها علىٰ البحر الأبيض المتوسط.

وهي تتكون من مجموعة من الجزر المتناثرة، والمرتفعات الشاهقة، والسهول الطويلة والمتعرجة.

ويقسم المؤرخون التاريخ اليوناني إلىٰ عصرين رئيسين:

١ـ اليونان الأولىٰ: (عصر الأبطال) وينتهي بانتهاء القرن السابع قبل الميلاد، ويغلب علىٰ تاريخ هٰذا العصر الجانب الأسطوري.

٢ـ العصر التاريخي، وهو من بداية القرن السادس قبل الميلاد، وقد برز فيه دور المدن اليونانية مثل، اسبارطه، وأثينا، وتعرف حضارة هٰذا العصر باسم: الحضارة الهلينية، نسبة إلىٰ المهاجرين من الشعوب (الهندو أوربية) الذين أطلقوا علىٰ أنفسهم الهلينيين، وسماهم الرومان فيما بعد باسم (الإغريق) وعرفهم أهل الشرق باسم اليونانيين(١)، وقد

---

(١) انظر: جمال عبدالهادي، أوربا منذ أقدم العصور، اليونان، ص١٢ ـ ١٦.

أُصيب اليونان بالصراعات الداخلية، ثم تسلَّط عليهم الفرس واستعمروهم، حتىٰ قام فيليب المقدوني (٣٥٩ ـ ٣٣٦ق. م) بتوحيد المدن اليونانية وما حولها، وبذٰلك طرد الفرس، ثم جاء ابنه الإسكندر (٣٣٦ـ ٣٢٣ق. م) ليكمل الدور بالتوسع الكبير حيث بسط سلطان الدولة علىٰ حوض البحر الأبيض المتوسط، والعراق، وفارس، وقتل ملك الفرس دار بن دارا، وزاد في توسعه حتىٰ بلغ الهند، والترك، والصين، ولكن لم تلبث أن عادت اليونان بعد موته إلىٰ حالة من الضعف والانقسام، والحروب الأهلية، حتىٰ أصبحت في سنة: (٢٧٧ق. م) موزعة إلىٰ ثلاث ممالك هي: مملكة مصر، ومملكة سوريا، ومملكة مقدونيا، ثم عاشت بقية الفترة حتى: (١٤٦ق. م) حيث استولىٰ الرومان علىٰ مقدونيا، ثم توالي مدّهم حتىٰ تمَّ لهم الاستيلاء علىٰ بلاد الشام، ومصر، وسواحل أفريقيا.

والشعب اليوناني، من أنجب شعوب العالم، وأذكاها، وأكثرها استعدادًا للعلم والأدب، وقد نبغ فيهم الكثير من الفلاسفة والحكماء، ولكنهم مع ذٰلك أمة وثنية كافرة لم تؤمن بشريعة إلٰهية.

والمراجعة الفاحصة للحضارة الاغريقية، ونتاجها العلمي، والفلسفي، والأدبي، تظهر انحرافها العقدي بكل وضوح، ومن أبرز معالم الانحراف العقدي[1].

١ـ ترسيخ فكرة الصراع بين البشر وبين الله، ومحاولة تمرد البشر المستمر علىٰ الله، مما صبغ حياتهم وميَّزها بقلة الدين والخشوع

(١) انظر: محمَّد قطب، جاهلية القرن العشرين ص(٢٦، ٢٧)، وأبوالحسن الندوي ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص(١٥٧، ١٥٨).

وجعلها مادية جافة، متمردة علىٰ الآداب، والأعراف، والثوابت الأخلاقية، في الفطرة البشرية.

٢ـ الإيمان بالمحسوس وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس.

٣ـ شدة الاعتداد بالحياة الدنيا، والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها، وهٰذا مما أدىٰ بهم إلىٰ الظلم والعسف، في جلب الأموال والحصول عليها، وفرض الضرائب الباهظة علىٰ الشعوب، وأدىٰ في الجانب الآخر إلىٰ الترف والضعف الخلقي والتنافس علىٰ الاستمتاع بالملذات الهابطة.

٤ـ النزعة الوطنية بين المدن اليونانية مما أدىٰ إلىٰ التفرق والشتات.

وهٰذه الانحرافات هي بعينها سبب تفككها، الذي أدىٰ إلىٰ ضعفها وسقوطها، وهٰكذا حقت سنة الله في زوال الظالمين، ونزع التمكين عنهم.

النموذج الثاني

سقوط الحضارة الرومانية:

سيطرت الدولة الرومانية علىٰ مساحة واسعة من الأرض، فبلغت في أقصىٰ اتساعها، من المحيط الأطلسي غربًا، إلىٰ الفرات شرقًا، ومن نهر الراين والدانوب شمالاً، إلىٰ صحراء العرب وإفريقيا جنوبًا(١)، وهي تقع في أجمل المنطقة المعتدلة من الأرض بين خطي العرض ٢٤ـ ٥٦ شمالاً(٢).

وقد عُمِّرت من الزمن طويلاً من قبل الميلاد حتىٰ سنة: ٤٧٦م،

---

(١) أدوارد جيبون، أضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها(١/ ٦٦).

(٢) المصدر السابق (١/ ٧٤).

حين سقطت ممالكها في الغرب، وبقيت في القسطنطينية وما حولها، حتىٰ فتحها السلطان العثماني محمَّدالفاتح سنة: ١٤٥٣م.

والحضارة الرومانية، هي التي خلفت الحضارة اليونانية في ممتلكاتها من الأرض، واستفادت الكثير من فنونها وعلومها، ورغم قوة الدولة العسكرية والاقتصادية، واتساع ممتلكاتها، وطول الزمن الذي عُمرّته في الأرض، إلاَّ أنَّها اضمحلت شيئًا فشيئًا حتىٰ سقطت وبادت، وحقت عليها السنة الإلـٰهية في الزوال ونزع التمكين من الظالمين.

ومن أبرز سمات الحضارة الرومانية، أنّها حضارة جاهلية وثنية، تقدس القوة المادية، وتسعىٰ إلىٰ فرض الاستعمار والسيطرة علىٰ الشعوب، وتبحث عن المتاع الحسي علىٰ حساب الروح والفكر، بل والإغراق في الاستمتاع بالملذات الجسدية، والشهوات الهابطة، وكان مبدؤهم: الحياة فرصة للتمتع واللَّهو[١].

ودخول النصرانية في الدولة، وسيادة رجال الدين والكهنوت، ونفوذ البابوات لا ينفي عنها صفة الجاهلية والوثنية، لأنَّ النصرانية التي انتشرت فيها هي ديانة اليهودي: «شاؤل الطرسوسي» والذي عرف باسم بولس[٢].

وقد اعتنق الامبراطور الروماني قسطنطين (ت: ٣٣٧م) النصرانية بعد تحريفها وتبديلها كما أنه لم يكن مخلصًا في اعتناقها وإنما لمصلحة

---

(١) الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص(١٦٥).

(٢) ويلز، موجز تاريخ العالم ص(١٦١).

سياسية(١).

وقد اعتنىٰ كثير من الباحثين بدراسة أسباب سقوط الامبراطورية الرومانية مثل: «ادوارد جيبون»(٢) الذي خلص في تحليلاته، إلىٰ أن تراكم الظلم والطغيان، وإرهاق الشعوب بالضرائب، وقتل الحرية والفضيلة والشرف، أدىٰ إلىٰ الكراهية لدىٰ الشعوب، ومن ثم السَّعي إلىٰ التغيير والرضا بالبديل مهما كان(٣).

وقد ذكر نحو ذٰلك العلامة أبوالحسن الندوي في كتابه ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟(٤).

أما الأستاذ محمَّد قطب(٥): فيرىٰ أنَّ الحضارة الرومانية برغم ما فيها من الإبداعات النافعة للبشرية مثل: التنظيم السياسي، والإداري، والحربي، وتطور المدنية في استخدام الوسائل المادية لرفاهية الناس، وتيسير الحياة، وإنشاء الطرق والجسور، وقنوات المياه والحمامات، والمسارح والملاعب. . . إلاَّ أنَّها تعيش انحرافات جاهلية أدت بها إلىٰ الهلاك والدمار وفق سنن الله.

---

(١) نص علىٰ ذٰلك المؤرخ الأمريكي (درابر) انظر: أبوالحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص(١٦٦).

(٢) في كتابه: اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، وتقع ترجمته إلىٰ العربية في ثلاثة مجلدات.

(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٩٨).

(٤) انظر: ص(٣٠ ـ ٣١ و١٦١ ـ ١٦٥).

(٥) انظر: جاهلية القرن العشرين ص(٣١، ٣٢) الطبعة الأولىٰ، سنة: ١٣٨٤هـ.

ومن أعظم انحرافاتها:

١ـ إيمانها العنيف بالمادة علىٰ حساب الروح، فالوجود هو ما تدركه الحواس، أما الذي لا تدركه الحواس فهو شيء لا وجود له، وساقط من الحساب، ومن ثم كان جانب العقيدة أشد الجوانب ضحالة في حياة الرومان.

٢ـ التضخيم الشديد لعالم اللذائذ الحسية التي لا تقف عند حد، ولقد تجاوزوا لذائذ الجنس البالغة حد الابتذال إلى لذة الاستمتاع الوحشي بإراقة الدماء والقتل، والتعذيب، والتمثيل بالضحايا، بل ويجتمعون لمشاهدة ذٰلك، وهٰذه الحالة من الترف والظلم مؤدية إلىٰ الهلاك والسقوط.

٣ـ سيطرة روح الاستعمار واستغلال الأمم الأخرىٰ لمصلحة الوطن الأم وحده، ولم يكن رجالها والقائمون عليها يتحاشون من أي ظلم وقسوة في سبيل رخاء العيش لطبقة ممتازة، وأنَّ العدل الروماني الشهير كان عدلاً للرومانيين فقط كما يقول العالم محمَّد أسد[(١)].

وكما يشهد بذٰلك واقع تاريخهم، والظلم والاستغلال من أسباب السقوط والزوال.

النموذج الثالث:

سقوط الأندلس:

الأندلس هي ذٰلك الفردوس المفقود أعاده الله وأمثاله للمسلمين، وهي تشمل كل ما حكمه المسلمون من شبه الجزيرة الإيبيرية (أسبانيا والبرتغال اليوم).

---

(١) انظر: الإسلام علىٰ مفترق الطرق ص(٣٨)، ترجمة عمر فروخ.

وقد فتحها المسلمون (سنة: ٩٢ هـ) واستمرت بها دولة الإسلام وحضارته ثمانية قرون حتىٰ سقطت آخر ممالكها (سنة: ٨٩٧هـ)، وقد مرّت في هٰذه القرون بعدة أحوال، تقلبت خلالها بين القوة والضعف، والنصر والهزيمة، والوحدة والتفرق.

إنَّ السمة الظاهرة علىٰ فتوحات الإسلام أنّها فتوحات مستقرة فما دخل الإسلام بلدًا إلاَّ واستقرَّ به، لأنَّه الدين الحق الموافق للفطرة التي فطر الله النَّاس عليها، وإذا كان الفاتحون يحملون هٰذا المعنىٰ بعمق فإنَّ ذٰلك يظهر أثره فيما يفتحون من البلدان.

وإنَّ تاريخ المسلمين بالأندلس يمثل ظاهرة فريدة تحتاج إلىٰ بحث لمعرفة أسباب تفردها.

لقد سقطت الإمارات، والدول الإسلامية التي حكمت الأندلس، ولم يغير سقوطها بنية المجتمع ولا هويته الفكرية العقدية، لأنَّ سقوط الدول والأسر الحاكمة أمر طبيعي وكثير الوقوع في التاريخ، غير أنَّ سقوط الأندلس الأخير هو سقوط الملة والأمة الإسلامية في هٰذا الصقع من الأرض، وهو الأمر المحزن حقًا والذي يحتاج منَّا إلىٰ تأمل الأسباب والتعرف عليها.

فما هي الأسباب؟

١ـ إنَّ الفعل الخارجي أمر محقق وواضح ، بل هو المتوقع من العدو، فأعداء الملة يكيدون ليل نهار، لاطفاء نورالله، وصدالنَّاس عن شريعته قال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ . . .﴾ الآية [البقرة: ١٢٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ . . .﴾ استطاعوا [البقرة: ٢١٧] ولقد بلغ حقدهم علىٰ

مسلمي الأندلس الغاية، ولما تمكنوا من المسلمين وبلادهم خانوا العهود والمواثيق التي أعطوها لبعض المدن والبلدان، فأعملوا فيهم القتل والحرق وأجبروهم على الهجرة والخروج من البلاد أو اعتناق النصرانية ونصبوا لذلك محاكم التفتيش، حتى أخلوا البلد كلها من المسلمين، وصاروا بين طريد، أو قتيل، أو مرتد عن الإسلام، أو مظهر لشعائر النصارى مستتر بإسلامه، كما أحرقت المساجد أو حولت إلى كنائس، فالحال كما قال أبو البقاء الرندي(١):

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان

٢- الأسباب الداخلية:

إن السبب الخارجي لا يكون مؤثرًا التأثير البالغ إلا إذا عاونته وزامنته أسباب داخلية من واقع المسلمين وحياتهم.

فكيد العدو أمر مستمر لكنه لا ينجح إلا إذا وجد محلاً للنجاح من الداخل، قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا

(١) نفح الطيب (٤/٤٨٦، ٤٨٨).

أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ١٦٥]، ولذٰلك لا بد من البحث والتعرف علىٰ الأسباب الداخلية عند مسلمي الأندلس والنقص الذي دخل عليهم حتىٰ وصلوا إلىٰ هٰذا المستوىٰ من الضعف والتفرق وفي هٰذا فائدة لنا وهي: تلافي أسباب النقص والانحراف حتىٰ لا يصيبنا ما أصابهم.

(أ) إنَّ السبب الرئيسي في سقوط الأندلس، هو الانحراف العقدي الذي أصاب المسلمين هناك فأفقدهم معاني الولاء والنصرة، والأخوة الإيمانية، والتوكل علىٰ الله، وإفراده بالطاعة والاتباع. والوقائع التاريخية علىٰ مولاتهم للأعداء والرُّكون إليهم من دون المؤمنين أشهر من أن تذكر.

يقول الإمام ابن حزم مبينًا أحوال أمراء دول الطوائف: «والله لو علموا أنَّ في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارىٰ فيمكنوهم من حُرم المسلمين وأبنائهم... وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعًا فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس»(١).

(ب) نسيان أهل الأندلس عنصر استمرارهم وبقائهم ومبرر وجودهم وهو الجهاد في سبيل الله، والدعوة لإقامة شريعته، فركنوا إلىٰ الدنيا وملذاتها ونسوا حظًا مما ذكروا به، وهٰذا أحد صور الانحراف العقدي.

---

(١) رسائل ابن حزم (٣/ ١٧٣).

(ج) كثرة الفتن والمؤامرات، وداء التفرق الذي أصاب أمراء الأندلس وبلدانها، وهو خلاف ما أمر الله به من الوحدة والاعتصام بحبله قال تعالىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

(د) الضعف الخلقي بسبب الترف والانغماس في الملذات واتباع الشهوات ولذٰلك انتشرت بينهم الأمراض الخلقية، كالمجون، والتهتك، والخلاعة، وشرب الخمر، والخيانة، وعدم الوفاء بالعهد، والزندقة، ومن المعلوم أنَّ الترف حالة نفسية ترفض الاستقامة علىٰ حالة الجد، وإذا أصاب أمة أفسدها وأدىٰ إلىٰ تحللها وسقوطها.

أسئلة وتمرينات على الفصل الثالث

س١: ما هو أثر القرآن في التحول الفكري والثقافي عند العرب؟

س٢: ما هي الكتب المختصة بتراجم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ؟

س٣: هل اطَّلعت على شيء من كتب السيرة النبوية؟ اكتب تعريفًا عن أحدها؟

س٤: راجع كتاب فتوح البلدان واكتب ملخصًا عن الفتوح في بلاد الشام؟

س٥: اطَّلع على كتاب أخبار مكة للأزرقي واكتب تقريرًا عن محتوياته في صفحتين؟

س٦: عدد ضوابط دراسة التاريخ عندالمسلمين؟

س٧: هل تستطيع أن تستخرج أمثلة من سيرة ابن هشام أو تاريخ الطبري، وتطبق عليها نقد الروايات سندًا ومتنًا؟

س٨: ما هي مراتب المصادر عند العلماء المسلمين؟

س٩: ما هي المراحل التي مرَّ بها التدوين التاريخي، مع التمثيل لكل مرحلة؟

س١٠: ما هو منهج العلماء السابقين في نقل الأخبار؟

س١١: ما هي الاتجاهات الفكرية التي يمثلها المؤرخون المذكورة مناهجهم؟

س١٢: هل عرفت منهج الطبري في كتابة التاريخ؟

س١٣: ما هي أقسام كتاب البداية والنهاية؟ وما هي مصادره في السيرة النبوية؟

س١٤ : ما هو موقف ابن كثير من الاسرائيليات؟

س١٥ : ما هو المنهج الذي استخدمه الشيخ صادق عرجون في نقد الأخبار؟ وهل يرد عليه اعتراض؟

س١٦ : ما هي عقيدة المسعودي؟ وما قيمة كتابه مروج الذَّهب؟

س١٧ : ما هي الأساليب التي استخدمها طٰه حسين في دراسة الموضوعات التاريخية؟

س١٨ : بماذا تتميَّز طريقة طٰه حسين في عرض الموضوعات؟

س١٩ : ماذا يمثل المؤرخ فيليب حتَّىٰ في الاتجاه الفكري؟ وما هي أساليبه في الوصول إلىٰ ما يريد تقريره؟

س٢٠ : ما ذا يقصد بتفسير التاريخ؟ وما هي الأحداث التي تفسر وتعلل؟

س٢١ : اذكر الأركان الواجب ملاحظتها عند تفسير التاريخ؟ وما فائدة معرفتها؟

س٢٢ : لتحليل حوادث التاريخ منطلقات وأسس فما هي؟

س٢٣ : ما هي الغاية التي يُسعىٰ إلىٰ الوصول إليها من خلال التفسير الإسلامي للتاريخ؟

س٢٤ : إلىٰ كم تنقسم الدول من حيث أسس قيامها؟

س٢٥ : ماهي أنواع السقوط للأمم والدول؟

س٢٦ : اذكر بعض العوامل لقيام الدول واستقرارها مع الدليل؟

س٢٧ : ما هي الأمور المؤدية بالأمة إلىٰ السقوط والانهيار؟

س٢٨ : ماهي أسباب سقوط الحضارة الإغريقية؟

س٢٩ : ما وجه الشبه بين الحضارتين الإغريقية، والرومانية؟

س٣٠: ما هي سمات الحضارة الرومانية؟

س٣١: بماذا علَّل الباحثون سقوط الحضارة الرومانية؟

س٣٢: هل تذكر الانحرافات البارزة في حياة الرومان؟

س٣٣: لماذا يمثل تاريخ المسلمين في الأندلس ظاهرة فريدة؟

س٣٤: كيف ضاعت الأندلس؟

س٣٥: ماهي الفائدة من دراسة أسباب سقوط الدول والأمم؟

س٣٦: اختر بعض الأحداث المعاصرة واكتب مقالة في تحليلها وتفسيرها؟

الفصل الرابع

الحضارة الغربية المعاصرة

دراسة تحليلية

أسس الحضارة الغربية وأصولها التاريخية

قامت الحضارة الغربية في العصر الحديث علىٰ الموروث التاريخي الذي ورثته من الحضارات السابقة التي عاشت في نفس المنطقة، وأضافت أشياء جديدة في نفس الاتجاه الفكري مموهًا ومطليًا بطابع التمدن والتقدم المادي، وأسس هٰذه الحضارة وأصولها التاريخية هي:

١ـ **الحضارة اليونانية:** لقد مجدت الحضارة المعاصرة الموروث اليوناني من الأساطير والفلسفات والآداب، واعتنت بذٰلك ونشرته وقدمت الدراسات المفصلة عنه متسمة بروح الإعجاب والتقديس، والحضارة اليونانية، ـ كما مرَّ معنا ـ تقوم علىٰ تقديس العقل علىٰ حساب الروح، فالذي لا تدركه عقولهم يكون ساقطًا من الاعتبار، ومن ثم صارت الأخلاق عندهم قضايا ذهنية أكثر مما هي واقع عملي يمارس[1]، كما أنَّ تصورها للألوهية هو تصور وثني غامض إذ لم تهتد بدين رباني.

٢ـ **الحضارة الرومانية:** الأساس الثاني للحضارة الغربية المعاصرة هو موروث الحضارة انرومانية، التي تقدِّس الرفاهية المادية والقوة العسكرية والسياسية وفرض الهيمنة والسلطان علىٰ بقية الأمم والشعوب، وهٰذا ملاحظ في الحضارة المعاصرة من خلال دراستهم لتاريخ العالم إذ لا يزال يسيطر عليهم الموقف القديم، والنَّظر إلىٰ تاريخ العالم علىٰ أنَّه «رومانيون، وبرابرة» فكل الأمم غير الرومان هم في

---

(١) انظر: جاهلية القرن العشرين ص(٢٩).

نظرهم برابرة أي غير متمدنين ولا متحضرين، وهو نوع من التبرير الأدبي لسعي أوربا اليوم للسيطرة علىٰ العالم باعتبارهم وارثي الرومان أهل الحضارة والمدنية(١).

٣ـ **الدين النصراني المحرَّف:** الأساس الثالث بعد الوثنيتين اليونانية، والرومانية هو الديانة النصرانية المحرَّفة، فقد دخلت الديانة النصرانية إلىٰ أوربا بعد تحريفها المبكر علىٰ يد شاؤل اليهودي الذي عرف باسم القديس بولس.

يقول درابر الأمريكي: إنَّ الجماعة النصرانية وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولَّت قسطنطين الملك، ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها، وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادؤها، ونشأ من ذٰلك دين جديد تتجلَّىٰ فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء(٢).

فإذا كانت النصرانية انتصرت في ساحة القتال إلاَّ أنَّها قد خسرت في معترك الأديان، فاختلط دينها بالوثنية الرومانية واليونانية(٣).

وعلىٰ الرَّغم من النفوذ الضخم الذي مارسته الكنيسة في أوربا في العصور الوسطىٰ، إلاَّ أنَّها لم تُطبّق من الشَّريعة النصرانية إلاَّ قانون الأحوال الشخصية أما بقيَّة جوانب الحياة فكانت تحكم بالقانون الروماني(٤).

وقد فرضت الكنيسة على النَّاس ضرائب مالية وعقلية وروحية،

---

(١) انظر: محمَّد أسد الإسلام علىٰ مفترق الطرق (٧٤، ٧٥).
(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص(١٦٦).
(٣) انظر: المصدر نفسه ص(١١٦).
(٤) جاهلية القرن العشرين ص(٣٣).

وتحوَّلت الأديرة التي كانت مكانًا للتبتل والعبادة إلىٰ مباءات ترتكب فيها الجرائم الخلقية بين الرهبان والراهبات.

والحضارة الغربية المعاصرة هي خلاصة هـٰذه الجاهليات وعليها مزيد[١]، وقد استفادت إلىٰ حد كبير في نهضتها العلمية من المنهج التجريبي الإسلامي أثناء صلاتهم بالمسلمين عن طريق الحروب الصليبية، والأندلس، وجزائر البحر المتوسط.

يقول «بريفولت» في كتاب بناء الإنسانية: لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية «يقصد الإسلامية» علىٰ العالم الحديث.. فإنَّه علىٰ الرَّغم من أنَّه ليس ناحية من نواحي الإزدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلىٰ مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، فإنَّ هـٰذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون في نشأة تلك الطاقة التي تكوِّن ما للعالم الحديث من قوَّة متمايزة ثابتة، وفي المصدر القوي لازدهاره، أي في العلوم الطبيعية وروح البحث العلمي[٢].

ويقول الباحث المسلم محمَّد أسد: لسنا نبالغ إذا قلنا إنَّ العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه لم يُدَشَّن في مدن أوربا النصرانية ولكن في المراكز الإسلامية: في دمشق، وبغداد، والقاهرة، وقرطبة[٣].

فالحضارة الغربية الحديثة ولدت بعيدة عن الدِّين إن لم تكن علىٰ عداء معه.

---

(١) المصدر نفسه ص(٣٤).
(٢) المصدر نفسه ص(٣٤).
(٣) الإسلام علىٰ مفترق الطرق ص(٤٣).

فقد كان تعصب أوربا سببًا في رفضها الفرصة المتاحة لتهتدي إلىٰ دين الله ومنهجه، فأخذت المنهج العلمي مفصولاً عن الهدي الإلـٰهي، وكرهت الدِّين بغضًا في الكنيسة التي حاربت العلم.

ولهـٰذا قامت النَّهضة الأوربية علىٰ أساس غير ديني وعادت إلىٰ أصولها التاريخية القديمة في الوثنيتين اليونانية والرومانية[(١)].

الخريطة الجغرافية:

الخريطة الجغرافية للدول متغيرة في الغالب وغير ثابتة، وتخضع للتحولات السياسية والاطماع التوسعية، وبعض الدول تكون خريطتها الجغرافية منطقية وحدودها طبيعية من جبال أو أنهار أو بحار، أو خصائص سكانية «عرقية أو دينية أو لغوية» وتتوفر فيها عناصر مكوّنات الدولة.

أما البعض الآخر فحدودها مصطنعة مما يعرضها لعدم الاستقرار وسرعة التغير.

أ ـ كيف تكونت الخريطة المعاصرة؟

الخريطة الجغرافية للدول في العصر الحديث مرّت بأطوار حتىٰ استقرّت نسبيًا بعد الحرب العالمية الثانية[(٢)]، غير أنَّها خضعت في تشكيلها لأهواء الدول الاستعمارية وتفوقها العسكري، ورغبتها في استمرار هـٰذا التفوق، والسيادة السياسية علىٰ الدول الصغار «دول العالم الثالث».

---

(١) انظر: جاهلية القرن العشرين ص(٣٤، ٣٧).

(٢) بعد انهيار النظام الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، ظهر العديد من الدول في آسيا الوسطىٰ، وشرق أوربا.

وقد كان العالم الإسلامي يخضع لسلطة سياسية واحدة هي الخلافة الإسلامية ويشعر بالوحدة في ظلها، حتىٰ وإن قامت له دول ومناطق نفوذ علىٰ أطرافها إلاَّ أنَّها تشعر بالولاء والوحدة، وقد سعت الدول الاستعمارية في أوربا إلىٰ القضاء علىٰ الخلافة العثمانية واقتسام أملاكها، وعقدت في سبيل ذٰلك عشرات المؤتمرات وقدمت مئات المشروعات لتقسيم تركة الخلافة وإلغائها[1]، وقد نجحت في اصطناع الأحزاب القومية والعلمانية في العالم الإسلامي[2]، والتي ساعدت علىٰ تثبيت مشروعات التقسيم، وظهور الدول والكيانات السياسية الصغيرة المتعددة داخل رقعة العالم الإسلامي، ورسم حدود سياسية له[3]، لا تقوم في أغلب الأحيان علىٰ أساس طبيعي، بل يتعمَّد المستعمر تداخل الحدود ونزع منطقة من بلد وإلحاقها ببلدٍ آخر، ليؤدي ذٰلك إلىٰ وقوع الخلافات واستمرارها، ولهٰذا ظهر في العالم الإسلامي والعربي عشرات الدول والكيانات السياسية المستقلة، وكذا في أوربا، وشرق آسيا، وأفريقيا، وأمريكا الجنوبية، حتىٰ بلغ عدد الدول في هيئة الأمم المتَّحدة أكثر من(٢٠٠) دولة وفي منظمة المؤتمر الإسلامي قرابة(٤١) دولة، وفي جامعة الدول العربية(٢١) دولة، حيث تعمَّدت

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي، تأليف لوثروب ستودارد وتعليق شكيب أرسلان (٣/٢٠٨، ٣٢٣) حيث أحصىٰ مائة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية.

(٢) انظر: نشأة الحركة العربية الحديثة لمحمَّد عزه دروزه، وفكرة القومية العربية علىٰ ضوء الإسلام للدكتور صالح العبود.

(٣) انظر: اتفاقية التقسيم المشهورة باسم «سايكس بيكو» في كتاب يقظة العرب ص(٥٧٨) وما بعدها، وتصريح الحكومة البريطانية للعرب السبعة في نفس المصدر ص(٥٨٦).

الدول الكبرى تفتيت الوحدة بين الدول الصغيرة أو المتخلفة اقتصاديًا لتبقى لها السيطرة السياسية والاقتصادية.

ب ـ دراسة نموذج دولتين تمثلان روح الحضارة الغربية المعاصرة:

واقع العالم الغربي اليوم بجناحيه، الشرقي، والغربي، ينبيء عن روح حضارتهم المادية الموروثة من تاريخهم السالف، فروسيًا التي تمثل الجناح الشرقي «قبل التحولات الجديدة فيها» لا تختلف عن الولايات المتَّحدة الأمريكية في أصل النَّظرة المادية للحياة، وعبادة القوَّة، وفرض السيطرة على الشُّعوب، وإنما الوسائل قد تختلف، فالاتحاد السوفيتي اتَّبع الأسلوب الاشتراكي في فرض سيطرة الدولة والحزب الحاكم على كل الموارد الاقتصادية وتسييرها وفق مصالح الحزب، ومصادرة الحريات العامة، ومحاربة الأديان، وإشاعة الالحاد، وقد اقتسم مع الولايات المتَّحدة الأمريكية ـ إبان مرحلة الحرب الباردة ـ النفوذ والسيطرة على نصف العالم تقريبًا.

واستأثرت أمريكا بالنفوذ والسيطرة على النصف الآخر، وتقوم فلسفتها على: عبادة الدولار، وفرض القوَّة والسيطرة على الشعوب الأخرى، رغم تظاهرها بالدفاع عن الحريات العامة، وحقوق الإنسان، ولكن وفق موروثها الثقافي المتمثل في:

١ـ الإغراق في الملذات الحسية.

٢ـ تقديس القوة وروح الاستعلاء على الشعوب غير الأوربية.

٣ـ الحقدالصليبي الموروث على العالم الإسلامي.

٤ـ العلمانية التي تفصل بين الدِّين والحياة.

وواقع السياسة الأمريكية، ويتبعها بقية الدول الأوربية، والمنظمة

الدولية، يشهد بروح الاستعلاء، وفرض السيطرة السياسية، والفكرية، والكيل بمكيالين في القضايا المتشابهة(١) تبعًا للأهواء والمصالح التي لا تخفي هويتها الصليبية النصرانية.

وقد انهار النظام الشيوعي في العام الهجري ١٤١٢هـ الموافق لعام: ١٩٩٢م، وتفكك الاتحاد السوفيتي الذي كان يضم شعوبًا وقوميات متعددة جمعتها بالقوة العقيدة الشيوعية، ومن ثم تفردت أمريكا ـ التي تضم وحدها أكثر من خمسين ولاية وتغطي مساحتها قارة واسعة مترامية الأطراف، ومتعددة البيئات الجغرافية ـ بالتحالف مع أوربا الغربية بزعامة العالم والسيطرة عليه، مما دعا بعض كتابهم إلىٰ إعلان نهاية التاريخ، علىٰ اعتبار أنَّ التاريخ عندهم، صراع بين قوتين، فلما انهارت إحداهما وتفردت الأخرىٰ بالسيطرة بلا منازع انتهىٰ الصراع في نظره.

وقال مفكرون آخرون: لا بد من البحث عن عدو جديد نجتمع عليه، فلم يجدوا غير عدوهم التاريخي، الإسلام وأهله، وسعت أوربا إلىٰ الوحدة بين دولها، وجاءت النتائج مشجعة، في الوقت الذي نجد فيه وضع العالم الإسلامي يزداد شتاتًا وفرقة، وترسم له خرائط التجزئة والدويلات الطائفية.

سمات الحضارة الغربية:

لقد وضح في المبحث الأول من هـٰذا الفصل الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية المعاصرة وهـٰذه الأسس هي التي تبرز سماتها

---

(١) الموقف الغربي في حرب الخليج، وقضية الصومال، والبوسنة والهرسك، وفلسطين، يعتبر نموذجًا واضحًا للتذبذب في المواقف.

ومميزاتها وهي:

١ـ المادية والخواء الروحي:

وهٰذه السمة نتيجة طبيعية للنَّهج العلماني «اللاديني» الذي يعتني بالحياة الدنيا ومباهجها وتيسيراتها وتحقيق شهوات الجسد المادية، ورفاهيته علىٰ حساب الروح، والأخلاق، والمثل العليا، حيث تقوم العلاقات بين الأفراد والمجتمعات علىٰ أساس نظرية المنفعة والذرائع(١). أما الدِّين والأخلاق فلا دخل لهما في شؤون الحياة، وإدارة نشاطها، لأنَّ الدِّين في نظرهم علاقة خاصة بين العبد ومعبوده إن أراد أن يقوم بها وإلاَّ لا إلزام عليه، مما فتح الباب علىٰ مصراعيه أمام الالحاد، وإنكار النبوات، ودعوىٰ الحرية التي لا ضوابط لها ولا قيود، ولذٰلك لا عجب ولا غرابة أن تتَّسم الحضارة الغربية بالمادية الجافة وفقد الروح المتأدبة بآداب النبوة والوحي.

يقول محمَّد أسد: إنَّ الأوربي العادي، سواء عليه أكان ديمقراطيًا أم فاشيًا، رأسماليًا، أم بلشفيًا، صانعًا أم مفكرًا، يعرف دينًا إيجابيًا واحدًا هو التعبد للرقي المادي، أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوىٰ جعل هٰذه الحياة نفسها أيسر فأيسر، أو كما يقول التعبير الدارج (عندهم): طليقة من ظلم الطبيعة. إنَّ هياكل هٰذه الديانة إنما هي المصانع العظيمة، ودور السينما، والمختبرات الكيماوية، وباحات الرقص، وأماكن توليد الكهرباء.

وأما كهنة هٰذه الديانة: فهم الصيارفة، والمهندسون، وكواكب

---

(١) تسمىٰ هٰذه النظرية «بابراجماتزم» وانظر عنها: الاتجاهات الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها، للدكتور جمعة الخولي ص(٦٥، ٧٤).

السينما، وقادة الصناعات، وأبطال الطيران[١]. فهٰذه هي معبوداتهم التي يعظمونها في الحقيقة.

٢ـ الانحطاط الخلقي:

بالرَّغم من حياة الوثنية والانحراف العقدي الذي عاشته أوربا منذ فجر تاريخها، إلاَّ أنَّها كانت تحافظ علىٰ نوع من الأخلاق والآداب، التي أصبحت تقاليد موروثة، ولٰكن مع مطلع العصور الحديثة، وحركة الكشوفات والمخترعات، وبناء المصانع، والتنافس الاستعماري، ووقوع الحروب والكوارث، تغيَّرت الحياة الاجتماعية، وسمح للمرأة بالعمل المختلط مع الرجال، وظهرت النظريات والأفكار الثائرة علىٰ كل قديم، وتخلَّصت أوربا المعاصرة من قيود الكنيسة المحرَّفة وسلطانها الجائر، واتَّخذت العلمانية منهجًا لحياتها، ولم يعد للدِّين الذي هو منبع الأخلاق سلطان عليها، ولا اعتبار لمبادئه في سلوكهم وأخلاقهم، فحلَّت الرَّغبات، والشهوات، والمصالح الذاتية، محل الآداب والأخلاق، وظهرت نظريات تدعو إلىٰ نسبية الأخلاق، وتغيرها من زمان إلىٰ زمان، ومن مكان إلىٰ مكان، وأنه لا مبادىء أخلاقية مطلقة، حتىٰ أصبح من مبادىء العلاقات الدولية المعاصرة «علاقات مصالح لا مبادىء» ونتج عن ذٰلك كله تفكك أسري، وعقوق للوالدين والأقارب، وفوضىٰ في العلاقات الجنسية، وعزوف عن الزواج وتكوين الأسرة، وكثر اللقطاء وأولاد الزنا، رغم انتشار موانع الحمل، وعمليات الاجهاض المبكرة.

وقد سرت هٰذه الشرور والمفاسد مع الأسف إلىٰ الكثير من

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص(٤٧، ٤٨).

بلدان العالم الإسلامي، عن طريق الإعلام بوسائله المختلفة، وعن طريق السفر والاختلاط بينهم وبين المسلمين، ولانعدام القيام بواجب شعيرة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، التي تعتبر الحارسة لأخلاق المجتمع ودينه وآدابه.

٣ـ التقدم العلمي المادي:

لما هجرت أوربا الفلسفة اليونانية، والمنطق التجريدي، وأخذت بالمنطق العلمي والمنهج التجريبي، الذي استفادته من المسلمين أثناء صلاتهم معهم عن طريق البعثات العلمية إلىٰ مسلمي الأندلس، وبقية معابر الحضارة ـ كما سلف ذكره ـ أخذت في التقدم المادي، وفُتح لها في هـٰذا الباب كُل شيء من وسائل التعمير، ووسائل التدمير، فتقدمت الصناعة، ووسائل الاتصال، والأبحاث الطبية، والهندسة والعلوم المختلفة، ولكنها بسبب كفرها وإلحادها وهروبها من الكنيسة أخذت الأداة العلمية المادية مفصولة عن المنهج الذي ولدت في ظلاله، وهو المنهج الإسلامي.

فصارت حضارتهم متَّصفة بالتقدم المادي، الذي يحمل من الشرور والانحرافات والخطر المحدق بأصل الإنسانية، أكثر مما يحمل من المصالح والتيسيرات المادية، حتىٰ شكىٰ عقلاؤهم من ذلك، وأدركوا خطر هـٰذا التقدم المادي المفصول عن الدِّين والأخلاق علىٰ البشرية، فقد أطلق العالم الأمريكي الدكتور: «الكسيس كاريل» صيحة النذير في كتابه الشهير: الإنسان ذٰلك المجهول. وقرَّر أنَّ هـٰذه الحضارة تقضي علىٰ خصائص الإنسان الذاتية، الفردية والجماعية، بسبب جهلها بالإنسان، فهي حضارة لا تناسب الإنسان.

آثار الحضارة الغربية في حياة البشرية:

نتحدث في هٰذا المبحث عن بعض الآثار السلبية للحضارة الغربية في الحياة البشرية، أما الآثار الإيجابية «الحسنة» فهي لا شك موجودة، فإنَّ التقدم العلمي والمخترعات الحديثة في وسائل المواصلات، والاتصالات، والأبحاث الطبية والتطبيقية، واستخراج خيرات الأرض، أمور حسنة، أسهمت في تقدم البشرية والتيسير عليها.

والآثار السلبية «السيئة» للحضارة المعاصرة هي نتيجة للانحرافات العقدية، والتصورات الجاهلية، والمناهج الضالة، التي وجهت التقدم المادي هٰذه الوجهة، أما لو كان هٰذا التقدم في ظل الحضارة المستقيمة «حضارة الإسلام» لتجنبت البشرية الآثار السلبية أو قلَّلت منها إلىٰ أقصىٰ ما يمكن، وكذٰلك كانت يوم أن سادت حضارة الإسلام في فجر عهدها الزاهر.

وأبرز الآثار السلبية ما يلي:

١ـ نشر المادية والإلحاد:

تضافرت عوامل متعددة لإيجاد هٰذا الأثر السلبي الذي صاحب الحضارة الغربية المعاصرة فكان للصراع الطويل بين العلم، والكنيسة النصرانية الممثلة للخرافة والوثنية، أثر في إيجاد هٰذا الاتجاه الالحادي، فقد انتهىٰ الصراع بانتصار العلم لما يحمله من الحق علىٰ الخرافة التي دافعت عنها الكنيسة، والتي تمثل الدِّين في أوربا، ولذٰلك وقع خصام وانفصال بين العلم والكنيسة، وكره الأوربيون بعد انفكاكهم من قيود الكنيسة والا نتصار عليها المباحث الدينية أيًا كانت، لأنَّها تذكرهم بسلطان الكنيسة وطغيانها. كما كان لليهود أثر في استغلال

هٰذا الصراع وتغذية الاتجاه المادي والإلحادي عن طريق النظريات التي أشاعوها بين النَّاس، فبعد أن ظهر «دارون» النصراني بنظريته في أصل الأنواع، وأصل الإنسان، فرح اليهود بذٰلك واستغلوا نظريته في تحطيم الأديان.

جاء في بروتوكولات حكماء صهيون: «إنَّ دارون ليس يهوديًا ولكنا عرفنا كيف ننشر أراءه على نطاق واسع ونستغلها في تحطيم الدِّين»[1]. وكان لهم ذٰلك، حيث ركَّز ثلاثة من كبار علمائهم علىٰ حيوانية الإنسان وماديته، وقاموا بصياغة الفكر الأوربي كله، في ميدان الاقتصاد، وعلم النَّفس، والاجتماع، فأخذوا إيحاءات النَّظرية ومدوها على نطاق واسع.

فأما «ماركس» صاحب التفسير المادي للتاريخ، فقد قال: إنَّ القوىٰ المادية والاقتصادية هي العنصر الفعال في تاريخ البشرية وهي التي تبني النظام الاجتماعي، والأخلاقي، والسياسي للإنسان، وليس فكره وعقيدته هي التي تفسر تاريخه.

ويقول: الدين أفيون الشعوب، وهو اسطورة ابتدعها أصحاب المصالح، والقيم ليس لها وجود ثابت إنما هي انعكاس للأوضاع الاقتصادية المتغيرة باستمرار.

وأما «فرويد» فهو باحث نفسي، وأخذ من نظرية (دارون) الإيحاء بحيوانية الإنسان، وركَّز علىٰ جانب واحد من جوانب الحيوان، جانب الجنس الذي يزعم أنَّ له السيطرة علىٰ كل أفعال الإنسان.

---

(١) انظر: محمَّد قطب التطور والثبات في حياة البشرية ص(٣٣).

أما «دوركايم» عالم الاجتماع فقد أخذ من نظرية دارون أشياء كثيرة:

ـ أخذ فكرة التطور الدائم الذي يلغي فكرة الثبات.

ـ وأخذ فكرة القهر الخارجي الذي يقهر الفرد على غير رغبة ذاتية منه.

ـ وأخذ التفسير الحيواني للإنسان، فهو يستشهد في كل حالة بما يحدث في عالم الحيوان.

ولقد تضافرت جهود هٰؤلاء مع غيرهم في إحداث تغيير كبير في بنية المجتمع الغربي، والتقت نظرياتهم علىٰ تحطيم الدِّين، والأخلاق، ونفي القداسة عنها(١) مما أشاع روح الإلحاد والمادية في الحضارة المعاصرة.

٢ـ إغراق البشرية في بحر من الإباحية والانحطاط الخلقي:

وهٰذا الأثر هو وليد التصور الحيواني للإنسان، وثمرة من ثمار الإلحاد، وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر، والابتعاد عن الهدي الإلٰهي، الذي جاء به رسل الله لهداية البشرية إلىٰ سلوك الصراط المستقيم، وحفظها من الانحرافات الجاهلية، الممثلة لزبالات الأفكار البشرية. والأمثلة علىٰ هٰذا أكثر من أن تحصر، فأفلام الفيديو، ودور السينما، والقنوات التلفزيونية المتخصصة في نشر الأفلام الجنسية الخالصة علىٰ عموم المستقبلين لها، وعبر الأقمار الصناعية لتبث السموم في كل أنحاء العالم، وممارسة البغاء، والشذوذ الجنسي، ونوادي العراة، والشواطىء، والبلاجات، التي تمارس كل المباءات والانحرافات، بكل حرية ووقاحة هي واقع الحضارة الغربية، وكل من تأثر بها من بقية

---

(١) انظر: محمَّد قطب، المصدر السابق، «فصل اليهود الثلاثة».

بلدان العالم، حتىٰ بعض من ينتسب إلىٰ العالم الإسلامي مع الأسف.

٣ـ قيادة البشرية نحو الدمار الشامل:

قيادة البشرية هي من وظيفة الأمة الشهيدة «أمّة الإسلام» قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولٰكن لما أقصيت الأمة الإسلامية عن مكان القيادة والصدارة، والغيت الخلافة الجامعة، واستُعْمِر العالم الإسلامي من قبل الدول الكافرة، وتولّىٰ القيادة غيرهم، وهو غير مؤهل للقيادة الحقة، التي تحفظ علىٰ البشرية أمنها، واستقرارها، ونشر العدل فيها، بموجب شرع الله ودينه الذي اختاره ورضيه للعالمين: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

لمّا تولىٰ القيادة غير أهلها، فإنه لا يتوقع منه الصلاح والإصلاح، وإنما الفساد والدمار، لأنّه لا يملك المنهج المستقيم المصلح، وإنما يعمل بموجب الأهواء والشهوات، والمصالح الذاتية والمادية، ونتيجة لذٰلك أصيبت البشرية بالخسران والفساد، وتحكمت فيها النزوات والنزعات العنصرية، وروح التسلط والقهر، فلا مكان لغير القوي، ولا عدل ولا قسط لمن لا يُخشىٰ سلطانه، ويرهب جانبه، وتخاف سطواته، وفي مدىٰ ثلاثين عامًا من سيطرة العالم الغربي علىٰ قيادة العالم، وقعت حربين عالميتين هما: الحرب العالمية الأولىٰ (١٣٣٤هـ الموافق ١٩١٤م، ١٩١٨م)، والحرب العالمية الثانية (١٣٥٨، ١٣٦٥هـ، الموافق: ١٩٣٩م، ١٩٤٥م) والّتي صُبّت فيهما علىٰ البشرية الويلات، وقتّل فيها الملايين وشرد أمثالهم، واستخدمت فيها أسلحة

الدمار الشامل، فألقت أمريكا القنابل الذرية علىٰ بعض المدن اليابانية، فدمرتها تدميرًا شاملاً، ولا تزال آثارها في المواليد إلىٰ اليوم.

ورغم دعاوي السلام، ووجود هيئة الأمم، إلاَّ أنَّ العالم يعيش خطر الحرب المدمرة، بالإضافة إلىٰ الحروب الواقعة في مناطق متعددة من العالم، وضحاياها بالملايين كما في أفغانستان، والبوسنة والهرسك، والشيشان، وحرب الخليج الأولىٰ، والثانية، وفي أفريقيا، وأمريكا الجنوبية، وجمهوريات الاتحاد السوفيتي المنهار.

كل ذٰلك بسبب الظلم وترك العدل وتولي القيادة من لايستحقها ولا يملك القيام بحقوقها.

سقوط الحضارة الغربية:

لقد توقع كثير من المفكرين والكتَّاب الغربيين سقوط الحضارة الغربية وأعلنوا ذلك بكل وضوح كما يظهر من عناوين مؤلفاتهم(١)، وذٰلك لانفصالها عن الدِّين وإغفالها الجانب الروحي في الإنسان، ودلائل التدهور والسقوط لهٰذه الحضارة ظاهرة بينة ونذكر منها:

١ـ أنَّ السقوط والزوال واقع لا محالة بحسب السنن الإلٰهية».

لقد عرفنا فيما مضىٰ عوامل الاستقرار وأسبابه، ومعاول الهدم والانهيار(٢) وإذا طبقنا تلك العوامل علىٰ الحضارة الغربية المعاصرة، نجد أنَّها تحمل معاول الهدم، وأنَّ السنة الإلٰهية المدركة من نصوص

---

(١) انظر مثلاً: تدهور الغرب، لشبنغلر طبعة: ١٩١٨م، وانحلال الحضارة، للبرت اشفيتسر، طبعة ١٩٢٣م، وقد ترجمه إلىٰ العربية عبدالرَّحمن بدوي بعنوان: فلسفة الحضارة. وسقوط الحضارة، لكولن ويلسون.

(٢) انظر: الفصل الثالث.

الوحي وتطبيقاتها الواقعية من خلال أحداث التاريخ تقرر ذٰلك، فلا يوجد تمكين مستمر لغير الموحدين لله المحكمين لشرعه في واقع حياتهم، كما هو شرط التمكين: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

ومما ينبغي تقريره هنا، أنَّ توقعنا سقوط الحضارة الغربية بحسب سنن الله، لا يعفينا من العمل المستمر لإزاحتها عن قيادة البشرية، وتولي ذٰلك، وبذل الجهد والطاقة في اكتساب الشروط الشرعية للتمكين في الأرض، وبناء الحضارة الإسلامية الجامعة، وتقصيرنا في ذلك مما يمد في عمرها، ويؤخر سقوطها.

كما يجب التنبه إلىٰ ما سبق تقريره في مبحث السنن الإلـٰهية من أنَّ أعمار الأمم، وتحقق السنن الربانية في الواقع، لا يقاس بأعمار الأفراد، ولهـٰذا لا يمكن تحديده بدقة قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج:].

٢ـ تنبه بعض المفكرين الغربيين إلىٰ قرب سقوط حضارتهم:

لقد تنبه كثير من المفكرين الغربيين بعد دراسات عميقة لواقع الحضارة الغربية، وآثارها علىٰ الإنسان، إلىٰ قرب سقوطها، وأنها تفقد كل يوم مبرر وجودها واستمرارها.

يقول الفيلسوف الإنجليزي: «برتراندرسل» لقد انتهىٰ العصر الذي يسود فيه الرَّجل الأبيض، وبقاء تلك السيادة إلىٰ الأبد ليس قانونًا من قوانين الطبيعة»[(١)]، لقد صدق، انتهىٰ دور الرَّجل الأبيض أيًّا كان جنسه، أمريكيًّا أم روسيًّا أم انجليزيًّا أم فرنسيًّا... انتهىٰ يوم أن وقع

---

(١) انظر: سيد قطب، المستقبل لهـٰذا الدِّين: «فصل: انتهىٰ دور الرَّجل الأبيض...».

الفصام النكد في التاريخ الأوربي بين العلم والإيمان، إنَّ الإنسان في حاجة إلىٰ عقيدة تعمر قلبه، وتنبثق منها تصوراته، وتقدم التفسير الشامل لحياته وللكون من حوله، ولعلاقته هو والكون بالخالق سبحانه، عقيدة ترسم له أهدافًا أكبر من ذاته، وأعم من جيله، وأبعد من حاضره، ويتلقىٰ عنها منهج فكره وسلوكه، كما يتلقىٰ عنها شعائر عبادته سواء بسواء، فتستقيم حياته كلها حزمة واحدة لا فصام فيها ولا صدام(١).

ويقول الطبيب الأمريكي: «الكسيس كاريل» إنَّ الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب؛ لأنَّها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنَّها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات النَّاس وأوهامهم، ونظرياتهم، ورغباتهم، وعلىٰ الرَّغم من أنَّها أنشئت بمجهوداتنا إلاَّ أنَّها غير صالحة لحجمنا وشكلنا(٢).

ويقول مستر (دالاس) وزير خارجية أمريكا في فصل: «حاجتنا الروحية، من كتابه حرب أم سلام»: إنَّ هناك شيئًا ما يسير بشكل خاطىء في أمتنا، وإلاَّ لما أصبحنا في هـٰذا الحرج، وفي هـٰذه الحالة النفسية. . .إنَّ الأمر لا يتعلَّق بالماديات، فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية، إنما ينقصنا هو: إيمان صحيح قوي، فبدونه يكون كل ما لدينا قليلاً، وهـٰذا النقص، لا يعوضه السياسيون مهما بلغت قدراتهم، أوالدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم، أو القنابل مهما بلغت قوتها(٣).

---

(١) انظر: سيد قطب، المرجع السابق.

(٢) الإنسان ذٰلك المجهول ص(٣٨) من الترجمة العربية.

(٣) انظر: سيد قطب، المرجع السابق ص(٩٨).

ويقول أحد الباحثين الغربيين: إنَّ الجنس البشري بكامله يمشي بخطى حثيثة إلىٰ الهلاك، إنَّه في النزع الأخير كالإنسان الجريح المسكين الذي لا يرجىٰ له شفاء، فكثرة الأخطاء في حضارتنا تجرها إلىٰ الغرق(١).

ويقول الفيلسوف الفرنسي: «برجسون» إنَّ فصل الدِّين عن العلم هو فناء محتوم للاثنين»(١).

ويقول الأديب المشهور: «برناردشو»: كنت أعرف دائمًا أنَّ الحضارة تحتاج إلىٰ دين وأنَّ حياتها وموتها يتوقفان علىٰ ذٰلك(١).

ويقول: «كيرغارد»: إنَّ فشل الدِّين والحروب العالمية أمران متلازمان»(٢) أي أنَّ التقصير في القيام بواجبات الدِّين، يوجب عدم الأمن، ووقوع الحروب المدمرة.

ويقول: «كولن ويلسون»: لا تستطيع الحضارة أن تستمر في وضعيتها العمياء الحاضرة، منتجة ثلاجات أفضل، وشاشات أوسع للسينما، مجرِّدة البشر باستمرار من كل معنىٰ للحياة الروحية(٢).

فهٰذه الأقوال كلها، وغيرها كثير، ناطقة بشعور القوم بقرب نهاية حضارتهم، وأنَّ شيئًا كثيرًا فيها يحتاج إلىٰ تعديل، ومع إدراكهم للمرض ووصفهم له إلاَّ أنَّهم جميعًا، لا يملكون العلاج الصحيح، ولا يقدرون عليه.

يقول الله تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ

---

(١) د/ عبدالله عزام، الإسلام ومستقبل البشرية ص(١٥، ١٦).

(٢) كولن ويلسون، سقوط الحضارة ص(٣٩٧، ٣٩٨).

كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الرعد: ٣٣، ٣٤]

٣ـ إفلاس الحضارة المعاصرة وعجزها عن إسعاد الإنسانية:

من دلائل سقوط الحضارة الغربية وعدم صلاحيتها، إفلاسها في ميدان القيم والآداب، والأخلاق، وعجزها عن تحقيق السعادة والطمأنينة للإنسان، وليست الرفاهية المادية، ووفرة الانتاج، وكثرة التيسيرات في وسائل الاتصال وحدها محققة للسعادة؛ لأنَّ السعادة معنىٰ أعلىٰ من الماديات، إنَّها تنبع من القلب، والنفس، والضمير والروح، والإيمان بالقدر، والرضا بالقضاء، والطمأنينة بعدل الله ورحمته وحكمته.

قال تعالىٰ: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ [الفتح: ٤].

إنَّ السعادة الحقيقية هي التي يوفرها المنهج الإلٰهي للنفس البشرية، إنَّها ثمرة الإيمان الحق وشقيقة التقوىٰ والاستقامة.

ولست أرىٰ السعادة جمع مالٍ ولٰكن التقي هو السعيد

إنَّ إفلاس الحضارة المعاصرة في عالم القيم الروحية، والأخلاق الإنسانية أمر اعترف به علماؤهم وشهد به واقعهم.

يقول: «كاريل» في كتابه: الإنسان ذٰلك المجهول: إنَّ القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية، تتولد عن نظمهم

السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فإنَّ البيئة التي أوجدها العلم للإنسان لا تلائمه؛ لأنَّها أنشئت دون اعتبار ذات الإنسان[١].

ويقول: «برتراندرسل» عن شقاء الإنسان المعاصر: إنَّ حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح، علىٰ حين كان النَّاس أجدر من الحيوان بهٰذه السعادة، ولٰكنهم محرومون من نعمتها في العالم الحديث، واليوم أصبح من المستحيل الحصول على هٰذه النعمة والسعادة»[٢].

إنَّ الفراغ الروحي، وعدم إدراك الهدف من الحياة الدنيا، والجهل بالمصير الذي يؤول إليه أمر الإنسان، أوجد هٰذا الشقاء، والشعور بتعاسة الحياة، ومن ثم الهروب منها إلىٰ المخدرات والخمور والجنس، وعصابات الإجرام، وإثارة الحروب والقلاقل، والانتحار. لقد عقدت جامعة هارفارد سنة: (١٤٠٠هـ، الموافق: ١٩٧٩م) مؤتمرًا لكبار الأساتذة وعلماء النَّفس والاجتماع وطرح علىٰ المؤتمر سؤالان[٣].

١ـ ما معنىٰ الحياة في أمريكا؟

٢ـ ما فلسفة التعليم وهدفه في أمريكا؟

وهٰذان السؤالان يوضحان مدىٰ الحيرة، وعدم إدراك معنىٰ الحياة وهدفها، والتخبط الذي تعيشه الحضارة المعاصرة في اهتماماتها؛ لأنَّها بدون منهج يجمع شتات النَّفس، ويحقق لها السعادة وكان الباعث لعقد المؤتمر، وطرح هٰذه الأسئلة وأمثالها، رسالة دكتوراه أعدت في الجامعة نفسها تحت عنوان: عدد الحمير في

---

(١) الإسلام ومستقبل البشرية ص(١٨).
(٢) الإسلام ومستقبل البشرية ص(١٩).
(٣) المرجع نفسه ص(٢٠).

العالم»[١]، فالاهتمامات التافهة ظاهرة من ظواهر الحياة المعاصرة التي لا يدرك الإنسان فيها وظيفته، ومصيره، وهٰذا من دلائل إفلاسها.

(١) المرجع نفسه ص(٢٠).

أسئلة وتمرينات على الفصل الرابع

س١ : اذكر الأصول التاريخية للحضارة الغربية المعاصرة؟

س٢ : ما هي الأسس المشتركة بين الحضارة المعاصرة وما سبقها من حضارات؟

س٣ : ما الذي أخذته الحضارة المعاصرة من حضارة المسلمين؟ وما صفة أخذها له؟

س٤ : ما هي المقومات الطبيعية للخريطة السياسية؟

س٥ : هل تعرف كيف تكوَّنت الخريطة الجغرافية في البلاد العربية؟ وما هي العوامل التي ساعدت على تشكيلها؟

س٦ : ما الفارق وما الجامع بين الاتحاد السوفيتي، والولايات المتَّحدة الأمريكية؟

س٧ : بم تتَّصف السياسة الأمريكية تجاه دول العالم غير الأوربي؟

س٨ : تتَّصف الحضارة الغربية المعاصرة بسمات تميزها فما هي تلك السمات؟

س٩ : اشرح أثر الاتجاه العلماني في اضعاف الحضارة الغربية؟

س١٠ : هل من الممكن قيام حضارة بلا أخلاق؟ وضح ذلك؟

س١١ : لماذا كان التقدم المادي في الحضارة المعاصرة مضرًا بالإنسان؟

س١٢ : هل تعرف آثارًا حسنة للحضارة المعاصرة؟

س١٣ : اكتب مقالة عن الأثر السلبي للحضارة في جانب الأخلاق؟

س١٤ : كيف استفاد اليهود من نظرية «دارون» في أصل الأنواع؟

س١٥ : من المؤهل لقيادة العالم؟ ولماذا؟
س١٦ : ما السبب في توقع سقوط الحضارة الغربية؟
س١٧ : ما هو الواجب على المسلمين تجاه البشرية؟
س١٨ : اذكر نماذج من أقوال الغربيين عن حضارتهم؟
س١٩ : ما هي أسباب السعادة؟ وكيف يتم الحصول عليها؟
س٢٠ : لماذا لم تحقق الحضارة المعاصرة السعادة للبشرية.

الفصل الختامي
المستقبل للإسلام

لقد تبيَّن لك أخي طالب العلم من الفصل السابق أنَّ الحضارة الغربية المعاصرة سوف تنهار وتسقط وفقًا لسنة الله في زوال الظالمين المستكبرين عن عبادة الله، واتباع شرعه ودينه الذي اختاره للبشرية، فما هو البديل الصالح؟

إذا انهارت الحضارة المعاصرة، فقد تخلفها قوة وحضارة أخرىٰ من نفس النوع والمنهج الفكري، ولكنه ليس بديلاً صالحًا، فقد حدث مثل هٰذا في التاريخ، سقطت الدولة الفارسية، وخلفتها اليونانية، وسقطت اليونانية، وخلفتها الرومانية، وسقطتا الفارسية والرومانية وخلفهما دولة الإسلام، وفي التاريخ الحديث سقطت بريطانيا العظمىٰ، وخلفتها أمريكا، وستسقط أمريكا، وقد تخلفها اليابان، أو ألمانيا. . . ؟!

إنَّ البديل الصالح عن كل جاهلية هو الإسلام، لأنَّه الحق، والعدل، والقدر الإلٰهي، والدين المرتضىٰ من رب الأرض والسماء: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣].

والمستقبل والعاقبة الحسنة له ولأهله، وعدًا صادقًا، وقدرًا نافذًا، لا مجرَّد رغبة وأمنية.

قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ

ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة]، وقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح: ٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف: ٩].

فهذا وعد قاطع جازم من الله العلي القدير، بإتمام نوره الذي أرسل به رسوله، وهو دين الحق، وإظهاره علىٰ كل الأديان، رغم أنوف من يدين بغير دين الحق علىٰ مختلف أصنافهم وأجناسهم، ودين الحق، هو الإسلام لله، والانقياد لطاعته بالدينونة له وحده في الاعتقاد، والشعائر، والشرائع، فلابد من تحقيق التوحيد في الاعتقاد، والشعائر والشرائع ليكون من أهل دين الحق الذي وعد الله باظهاره، ونصرة أهله.

وقد وُصِف في الآيات بثلاث صفات: النور، والهدىٰ، ودين الحق.

وقال تعالىٰ: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم: ١]، والهدىٰ والاستقامة، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الملك: ٢٢].

ومن المبشرات في السنة:

قوله ﷺ: «إنَّ الله زوىٰ[1] لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها،

---

(١) زوى: جمع وضم.

وإنَّ أمتي سيبلغ ملكها ما زوىٰ لي منها»[١].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث تميم الداري ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغنَّ هٰذا الأمر ما بلغ اللَّيل والنَّهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلاَّ أدخله هٰذا الدِّين، بعِزِّ عزيز، أو بذلِّ ذليلٍ، عزًّا يعز الله به الإسلام، وذلاًّ يذل به الكفر»[٢].

وعن أبي قَبيل قال: كنَّا عند عبدالله بن عمرو بن العاص، وسئل أي المدينتين تفتح أولاً، القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبدالله بصندوق له حِلَق، قال: فأخرج منه كتابًا، قال: فقال عبدالله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سُئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولاً أقسنطينية أو رومية؟[٣]، فقال رسول الله ﷺ: «مدينة هِرقل تفتح أولاً، يعني قسطنطينية»[٤].

وقد تحقق فتح قسطنطينية سنة: (٨٥٧هـ، الموافق: ١٤٥٣م) علىٰ يد السلطان العثماني محمَّد الفاتح أي بعد البشارة بذٰلك بثمانية قرون ونصف، وسوف تفتح روما بإذن الله تحقيقًا لبشارة رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوىٰ، فهٰذه النصوص الواضحة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وغيرها كثير دالة علىٰ تقرير هٰذه الحقيقة أن المستقبل للإسلام.

---

(١) صحيح مسلم من حديث ثوبان ـ رضي الله عنه ـ حديث رقم: (٢٨٨٩).

(٢) المسند (٤/ ١٠٣)، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني، حديث رقم: (٣).

(٣) هي روما عاصمة إيطاليا.

(٤) رواه أحمد والدارمي وغيرهما وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، حديث رقم: (٤).

وإيماننا بهٰذه الحقيقة يوجب علينا مسؤلية كبيرة، ويزرع في أنفسنا ثقة واعتزازًا بإسلامنا وحضارتنا ويبعد عنَّا اليَّأس والانهزام والخمول.

فلا بد من القيام بالمسؤلية الواجبة علينا تجاه ديننا وإسلامنا، اعتقادًا وعلمًا، وعملاً، ودعوةً، وجهادًا، وصبرًا، حتىٰ نسعد بتحقق وعدالله علىٰ أيدينا، ونكون من الطائفة المنصورة الظاهرة علىٰ مدار الزَّمن، كما أخبر بذٰلك المصطفىٰ ﷺ(١).

والعمل الصحيح المتكامل لبناء حضارة الإسلام وإعادة مجده يستلزم فهمًا وعلمًا وعملاً بمقتضيات التوحيد، والعودة الصادقة إلىٰ الله، واستمداد العون منه، وتوحيدمصادر التلقي «**الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح**»، وفي ظل ذٰلك لا نجد حرجًا من الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا، والاستفادة بالنَّافع من منجزات العصر، بل إنَّ ديننا يدفعنا إلىٰ العمل المثمر وبناء الحضارة الآمنة والمتكاملة، خدمة لبني الإنسان وعمارة للكون، ابتغاء لثواب الله، وقيامًا بالمسؤلية، فهٰذا واجبنا وواجب كل جيل من الأمة المسلمة، حتىٰ ننقذ أنفسنا ولا تحيق بنا السُّنَّة الربانية: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد: ٣٨].

(١) ورد الحديث بذٰلك في الصحيحين وغيرهما.

أسئلة تمرينات علىٰ الفصل الختامي

١ : ما عنوان الفصل؟ وماذا يثيرفي نفسك؟

٢ : هل تتوقع زوال الحضارة الغربية المعاصرة؟ وما السبب؟

٣ : ما هو البديل الصالح؟ ولماذا؟

٤ : ماذا يوجب علينا الإيمان بأنَّ المستقبل للإسلام؟

٥ : ماذا يستلزم بناء حضارة الإسلام؟

٦ : ماذا يترتب علىٰ الموقف السلبي والانزواء وترك المشاركة الفعَّالة، في نهضة المسلمين؟

٧ : هل قرأت كتبًا عن هـٰذا الموضوع؟

فهرس الموضوعات

المقدمة ٣
الفصل الأوَّل: مفهوم علم التاريخ وأهداف دراسته ٥ـ ٣٨
معنى التاريخ وتعريفه ٧
موضوع علم التاريخ ٩
غاية علم التاريخ وفوائده ٩ـ ٣١
معرفة السنن الربانية ونماذج منها ١٠
(أ) سوء عاقبة المكذبين ١٣
(ب) مداولة الأيام بين النَّاس ١٥
(ج) زوال الأمم بانتشار الفساد والظلم ١٦
(د) سنة التغيير عن طريق الفعل الإنساني ١٨
(هـ) نصر الله للمؤمنين ٢٠
(و) سنة التدافع ٢١
٢ـ التعرف على معالم تاريخ الإنسانية ٢٣
(أ) معرفة تاريخ الأنبياء عليهم السلام ٢٤
(ب) معرفة سيرة النبي ﷺ ٢٤
(ج) التعرف على تاريخ الخلفاء الرشدين ٢٤
(د) معرفة سير العلماء والدعاة والمصلحين ٢٥
(هـ) معرفة أثر الإسلام في حياة البشرية ٢٥
(و) جناية الإلحاد والوثنية على البشرية ٢٥
٣ـ تأكيد جملة من الحقائق في حياة البشرية ٢٦

(أ) توحيد الله هو الأصل في البشرية ٢٦
(ب) وحدة أصل البشرية ٢٦
(ج) الإنسان مستخلف لعبادة الله في الأرض ٢٧
(د) حاجة الأمم للأنبياء والمصلحين ٢٩
٤ـ الحصانة الفكرية من الإنحراف عن منهج الله ٢٩
٥ـ المساعدة في فهم الحاضر وتحليله والتخطيط للمستقبل ٣٠
٦ـ اكتساب التفكير التاريخي ٣١
التاريخ ودراسة المجتمع ٣٢
علاقة علم التاريخ بالعلوم الأخرىٰ ٣٣
المصادر الأساسية للتاريخ ٣٤
أسئلة وتمرينات على الفصل الأوَّل ٣٧
الفصل الثاني: العصور التاريخية وصفات المؤرخ
ومراحل الكتابة ٣٩ـ ٦٥
التقسيمات الزمنية للعصور التاريخية ٤١
الدول والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ٥٠
الصفات الواجب توفرها في المؤرخ ٥٧
مراحل الكتابة التاريخية ٦٠
أسئلة وتمرينات على الفصل الثاني ٦٥
الفصل الثالث: ضوابط علم التاريخ عند المسلمين ٦٧ـ ١٢٤
مقدمة عن فضل المسلمين في علم التاريخ ٦٩
ضوابط دراسة علم التاريخ ٧٥ـ ١٠٧
(١) نقد الرواية سندًا ٧٥

(٢) نقد الرواية متنًا ٧٨
(٣) معرفة مراتب المصادر ٨٠
(٤) ملاحظة السنن الربانية والاجتماعية ٨٢
(٥) معرفة مناهج المؤلفين وطرائقهم في التأليف ٨٣
نماذج من مناهج المؤلفين ٨٤
أ ـ اتجاه الأصالة (الطبري، ابن كثير، محمد صادق عرجون) ٨٤
ب ـ الاتجاه الشيعي (المسعودي) ٩٣
ج ـ الاتجاه العلماني (طه حسين، فيليت حتّى) ٩٦
(٦) التفسير الصحيح للأحداث ١٠٢
(أ) أركانه ١٠٤
(ب) منطلقاته ١٠٦
(ج) غايته ١٠٦
أمثلة تطبيقية من سقوط الأمم ١٠٨
أنواع سقوط الدول ١٠٩
عوامل قيام الدول ١٠٩
عوامل السقوط ١١١
سقوط الحضارة الإغريقية ١١٢
سقوط الحضارة الرومانية ١١٤
سقوط الأندلس ١١٧
أسئلة وتمرينات على الفصل الثالث ١٢٢
الفصل الرابع: الحضارة الغربية المعاصرة
(دراسة تحليلية .... ١٢٥ ـ ١٤٩

أسس الحضارة الغربية وأصولها التاريخية ١٢٧
الخريطة الجغرافية ١٣٠
أ ـ كيف تكونت الخريطة المعاصرة ١٣٠
ب ـ دراسة دولتين تمثلان روح الحضارة الغربية ١٣٢
سمات الحضارة الغربية ١٣٤
آثار الحضارة الغربية في حياة البشرية ١٣٧
سقوط الحضارة الغربية ١٤٢
أسئلة وتمرينات على الفصل الرابع ١٤٨
الفصل الختامي: المستقبل للإسلام .... ١٥٠ ـ ١٥٤
أسئلة وتمرينات على الفصل الختامي ١٥٤
فهرس الموضوعات ١٥٥

صدر للمؤلف:

سلسلة تهذيب كتاب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ، حيث قام المؤلف بترتيبه وتهذيبه وتخريج نصوصه وتحقيقها، ممَّا جعله ميسرًا للقُرَّاء والباحثين، وقد سلك فيه المؤلف المنهج الَّذي أوضحه في الجزء الأوَّل «خلافة أبي بكر الصديق»، وقد جاء في صورة مرضية ـ إنْ شاء الله ـ جلت موضوع الفتنة وما صاحبها من أهواء وعلل ونوازع لنوابت الضلال وأهل الإفساد، الَّذين سعوا مبكرين في تشويه الحوادث التاريخية، والتزيد في الأخبار، واختراع أمور لا واقع لها، حتَّى تشوه تاريخ الصحابة، وصعب على الكثير من القراء، بل والباحثين إدراك الصورة الحقيقية للوقائع والأحداث.

وقد صدر من هذه السلسلة:

- الجزء الأول: خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.
- الجزء الثاني: خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
- الجزء الثالث: خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.
- الجزء الرابع: خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وكلها عن دار الوطن للنشر والتوزيع

صدر للمؤلف:

منهج كتابة التاريخ الإسلامي

مع دراسة لتطور التدوين ومناهج المؤرخين حتى نهاية القرن الثالث الهجري.

* كتاب يُعنى بالشروط الموضوعية والقواعد المنهجية والتصورات العقدية التي تحكم دراسة التاريخ الإسلامي، وما يشترط فيمن يتولى كتابته وتدريسه.

* كما يُعنىٰ ببيان المنهج العلمي في النقد والتحقيق، وفيه ثمانية عشر قاعدة لفهم التاريخ وتفسير حوادثه وضبط مصادره، وأسلوب عرضه وكتابته.

* وتجد فيه عرضًا لمنهج سبعة عشر مؤرخًا من مؤرخي القرون الثلاثة الأولىٰ.

* كما قدَّم بين يدي ذلك ببيان مفهوم العلم ومنهج تلقيه، ومفهوم التاريخ وفوائد دراسته.

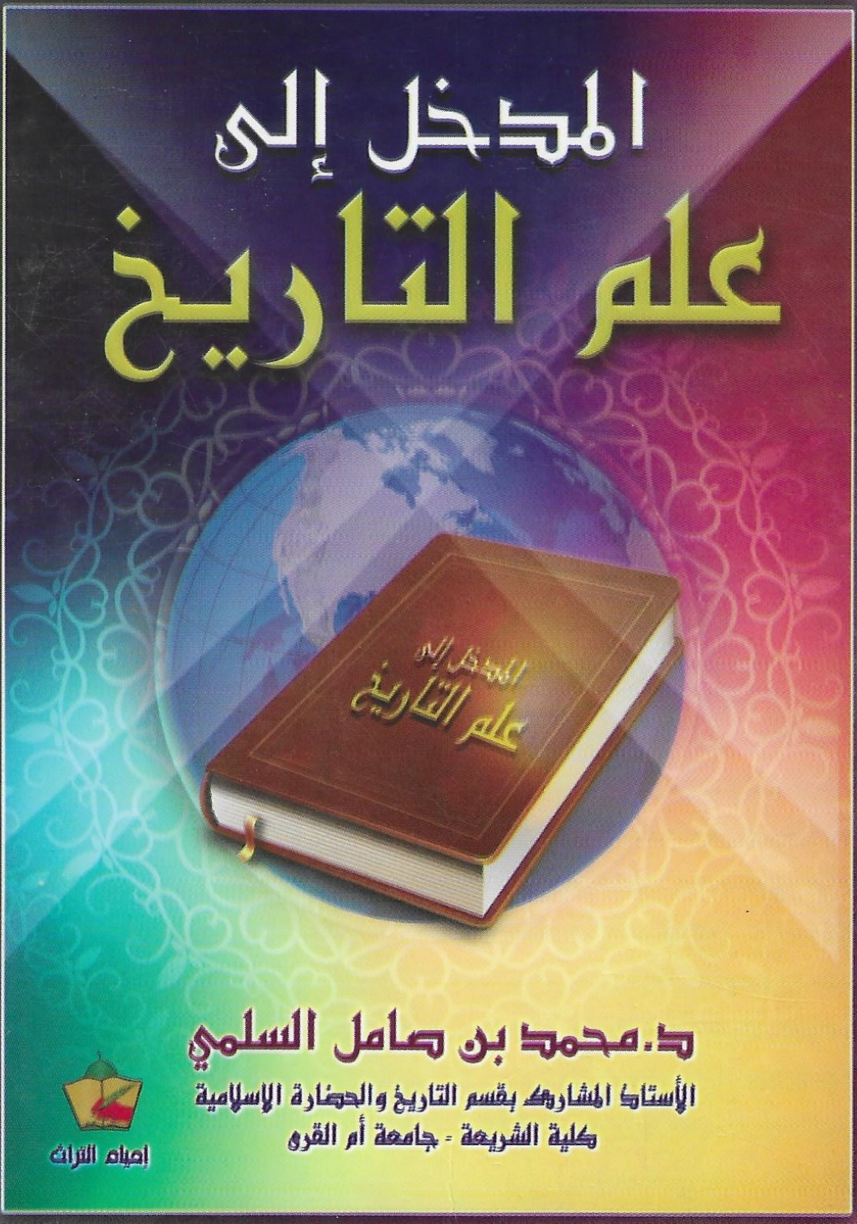

الناشر

مكتبة إحياء التراث الإسلامي

مكتبة منهال العلم - مكة المكرمة ملقية بجوار مستوصف الصاعد

المركز الرئيسي - مكة المكرمة - الزاهر - عمائر المنصورت : ٥٤٤٥٩٨٤

ت: ٥٤٢٤٤٨٧ ج: ٠٥٣٤١٤٠٤٥٤ - ٠٥٣٦٧٨٤١٠٨